معراج الهداية

(دراسة حول الإمام علي عليه السلام ومنهج الإمامة)

تأليف

الدكتور سعيد يعقوب

مركز الأبحاث العقائدية :

● إيران ـ قم المقدسة ـ صفائية ـ ممتاز ـ رقم ٣٤
ص . ب : ٣٣٣١ / ٣٧١٨٥
الهاتف : ٧٧٤٢٠٨٨ (٢٥١) (٠٠٩٨)
الفاكس : ٧٧٤٢٠٥٦ (٢٥١) (٠٠٩٨)
● العراق ـ النجف الأشرف ـ شارع الرسول (صلى الله عليه وآله)
جنب مكتب آية الله العظمى السيد السيستاني دام ظله
ص . ب : ٧٢٩
الهاتف : ٣٣٢٦٧٩ (٣٣) (٠٠٩٦٤)
● الموقع على الانترنت: www.aqaed.com
● البريد الالكتروني : info@aqaed.com

شابك (ردمك) : ٩٦٤-٣١٩-٤٣٠-٢

معراج الهداية

تأليف

الدكتور سعيد يعقوب

الطبعة الأولى
سنة الطبع : ١٤٢٤هـ
المطبعة ستاره

دليل الكتاب

بسم ا   الرحمن الرحيم

مقدمة المركز

تعتبر الإمامة أصلا من أصول مذهب أهل البيت(عليهم السلام) وركناً هاماً من أركانه الأساسية، ولهذا يعد مبحث الإمامة من أهم المباحث التي دون حوله الكثير من العلماء والمفكّرين، بحيث أدى ذلك إلى إغناء رصيد المكتبة الإسلامية بالكثير من الكتب المدونة في هذا المجال.

وهذا الكتاب ـ الماثل بين يدي القارىء الكريم ـ يعتبر من تلكم الكتب التي اهتمت بهذا الجانب، ولكنّها اختلفت عن أمثالها من ناحية الزاوية التي نظر من خلالها المؤلف إلى هذا الموضوع، وهي زاوية قلّ من نظر من خلالها إلى هذا المبحث، وذلك، لأن المؤلف حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة وعلم النفس، وحاول خلال بحثه لموضوع الإمامة أن ينظر إليه من زاوية اختصاصه في علم النفس، ولهذا وصل المؤلف عن طريق المنهج العلمي والتحليلي المعمق الذي اتبعه في دراسته هذا المبحث إلى نتائج جديدة حول مفهوم الإمامة.

ويفتخر "مركز الأبحاث العقائدية" أنّه يقوم بتشجيع النخبة من المستبصرين على تدوين حصيلة جهودهم في البحوث التي قادتهم إلى التخلي عن معتقداتهم السابقة ودفعتهم إلى الالتحاق بركب أهل البيت(عليهم السلام)، ولهذا أخذ المركز على عاتقه مهمة نشر أمثال هذه الكتب بعد أن تحظى بالمتابعة والتقويم والاشراف العلمي من قبل اللجنة العلمية للمركز.

ويعتبر هذا الكتاب اصداراً آخر ضمن "سلسلة الرحلة إلى الثقلين" التي جعلها المركز وسيلة لنشر كتب المستبصرين وأملنا أن يكون هذا الكتاب عن طريق مساهمته في توسيع آفاق ذهنية القارىء حول مكانة أهل البيت(عليهم السلام) وعظمة شأنهم خطوة في طريق خدمة هذه العترة الطاهرة التي جعل البارىء التمسك بها ـ كما ورد في حديث الثقلين ـ ضماناً لعدم الانحدار في أودية الضلال.

وا من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

مركز الأبحاث العقائدية

فارس الحسون

دعاء:

رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا.

رب اجعلني أتقرب في هذا العمل إليك واجعل طريق الإمام علي(عليه السلام) طريقي فهو طريق الرشد ومعراج الهداية وسفينة الوصول إلى ا تعالى والرسول(صلى ا عليه وآله).

رب اوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

مقدمة

الكتب التي انصرف مؤلفوها نحو تناول شخصية الإمام علي بن أبي طالب بالدرس والتحليل كثيرة جداً، والكتب التي ذهبت تتفحص ما كتب حوله في التاريخ، ليست فقط لدى المسلمين، بل وعند سواهم من الديانات الأخرى أيضاً كثيرة، كما أن الكتب التي اكتفت بالحديث عن فضائله ومنزلته وما قدمته للإسلام وللإنسانية جمعاء كثيرة.

وهذا لا يعني أن خزائن معرفته قد امتلأت، ولا يعني أيضاً أن العالم لم يعد بحاجة إلى المزيد مما يكتب عنه، بل على العكس، إن الذي كتب عن الإمام علي(عليه السلام) على كثرته وأهميته، ما يزال يعاني من مساحات شاسعة من الفراغ الذي يبحث عمن يشغله.

وإذا كانت الكتابات تصبو نحو الإحاطة الكلّية بهذا الرجل العظيم؛ فإنها لم تتمكّن من ذلك لا لأنها قاصرة، بل لأنه أمضى عمره الشريف مهتماً بالشؤون الدنيوية والأخروية في آن معاً، وهذا ما لا يتوفر لكاتب أو باحث أو مؤرخ أن يحيط به أو يفعله! وإنما يأخذ

طرفاً من هذه، أو طرفاً من تلك، لتلمع في ذهنه فكرة تأخذ طريقها إلى تدوين إضافة جديدة في سجل فهم ومعرفة الإمام(عليه السلام).

ولا نظن أننا سنبلغ أكثر مما وصل إليه غيرنا بكثير، وإنما نرغب في دخول غمار البحث، راجين من وراء ذلك الفائدة والبركة من جهة، وساعين نحو إثارة فكرة نراها جوهرية في فهم ماهية الإمامة من جهة ثانية.

وسيكون لنا في مسيرتنا البحثية مواطن متعددة نقف عليها واحدة تلو الاخرى، وتدور البحوث هنا حول ثلاثة محاور رئيسية هي:

المحور الأول: يدور حول إظهار ماهية الإمامة، في تناول يعتني بالجانب النفسي والاجتماعي من حياة الإنسان، وهذا الجانب هو الذي قادنا إلى تفصيل معنى الإمامة من الناحية اللغوية ومن ناحية الاصطلاح.

ولهذا المحور اتجاه نحو فهم شامل للإمامة، لا على أنها قيادة سياسية أو زعامة اجتماعية، أو على أنها نهج متقدم في شؤون الحياة، وإنما بما هي مصداق للنزوع الإنساني نحو الغاية من الوجود، ونحو الملاذ الذي يحتمى بكنفه، ويسعى من أجل بلوغه.

المحور الثاني: يدور حول انطباق هذه الماهية في النتيجة على شخصيات محدودة، تمارس مع تتابع الأزمنة أدواراً رسالية من

جهة،وتمثّل مرتكزاً هومن أهم المرتكزات العقائديةلدى البشرية كلها.

وهنا سوف نتوسع في استعراض النصوص المقدسة التي تؤيد ما ذكرناه،ونجلو بعد ذلك الصورة التي بلغناها في معرفة هذا الانطباق.

المحور الثالث: وهو المحور الذي يكون لنا فيه سياحة مع الكيفية التي مارسها الإمام علي(عليه السلام) في إرساء دعائم خطاب الإسلام الإنساني، وهو هذا الخطاب الذي باشره النبي الكريم محمد(صلى ا عليه وآله)، وكانت البشرية جميعها هي المقصودة من ورائه، وليس فقط فئة من الناس، ولا أمة من الأمم.

ولما كانت الإمامة مسألة من المسائل التي لا يمكن فصلها عن الإسلام بحال من الأحوال، لما تشكله من دور في حياة المسلمين، كان تناولها من أكثر الأمور حيوية وإثارة، وذلك لأسباب عديدة: منها أن فريقاً من المسلمين عدها فرعاً من فروع الدين، وعمل على إخراجها عن دائرة الأصول، مع ما تستحوذ عليه من جدل يخرجها عن الفروع ويجعلها من الأصول!

وعند النظر في ما سجل وقيل عنها، يلاحظ المهتم أنها دخلت مجالاً من التعصب كما سنشير إلى رأي الغزالي خلال البحث، وفي الواقع ليس للغزالي وحده هذا النمط من الرأي وإنّما سلك هذا المسلك أكثر أهل السنّة، وسنجد تفصيل ذلك بحول ا في مكانه من كتابنا.

والحقّ أن عملنا هنا ينصب بالدرجة الأولى على مفهوم الإمامة، وليس على وظيفة الإمام، مع ما سيكون من فروع تتفرع عن هذا الفهم، لأن الانطلاق من المفهوم إلى المصداق هو الذي يعين على تلمس معرفة أسباب الاختلاف الذي نشب بين الآراء التي بحثت موضوع الإمامة في الإسلام، ونحن نعلم المدى الذي شغله هذا الموضوع من الفكر الإسلامي، لكن الأمر أوسع من ذلك، فهو موضوع في الواقع يشغل مساحة كبرى من الفكر البشري عموماً ومنذ أقدم الأزمنة، بمعنى أنه ليس بدعة خاصة جاء بها الإسلام، بل وفق المنهج الذي تبنّيته، يتبين أنّها في عمق الحقيقة البشرية وعمق النفس الإنسانية، أي أن الإمامة ضرورة إنسانية وليست ضرورة مذهبية أو دينية مع ما يمثله الدين من ضرورات في حياة الناس.

وقد أخذ الجدل في التراث الإسلامي حول هذا الموضوع بعداً متميزاً، بحيث نجد من يعتبر الحديث في الإمامة من غير المسموحات، وأن الخطر كل الخطر في الاقتراب منه! ونجد أيضاً نقيض هذه الفكرة لدى أطراف أُخرى، كما نجد من وقف في المنطقة الوسطى بين هذين الأمرين، فلهذا رأينا أن المجال يتّسع لحمل هذا الأمر محمل البحث الجديد لما فيه من خير وفائدة، مستعينين ـ بالإضافة إلى العلوم المتبعة في هذا المجال ـ بعلم النفس الذي يقدم لنا خدماته في هذا المجال، والذي هو مجال تخصصي ودراستي.

والجانب الآخر الذي رأينا أنه من الضرورة بحثه أيضاً، هو الجانب التطبيقي لما تصل إليه نظرية الإمامة.

ولما كان الإمام علي(عليه السلام) هو المثل الأعلى للإمامة عند كافة المسلمين لما حفل به من قدسية، بحيث لو ذكرت كلمة الإمام ككلمة مفردة لتبادر إلى الذهن فوراً الإمام علي(عليه السلام)، ولما تمتّع به من صفات الإنسان الكامل، الذي قصدت مجمل الديانات السماوية والفلسفات الكبرى سبيل بناءاً الإنسان بناء يسير به نحو أن يحذو حذو هذا المثال، لذلك فقد اخترنا أن نتحرك داخل أجوائه، ونتعرف على حقيقة الهدف الإلهي من وراء جعله إماماً للناس كافة، وهذا لا يتحقق يقيناً بغير ما ينبغي أن يعرف أولاً عن مفهوم الإمامة، ثم بعد ذلك قد تنكشف الحجب وتظهر للمهتم الصورة العلوية المباركة.

وقد سعينا في الختام أن نربط الإمامة تاريخياً بالبعد الإنساني عامة، إدراكاً منا أنّها لم تنقطع يوماً من الأيام، ولم تنفصل عن مسيرته البشرية، ولم يتأت هذا الإدراك اعتباطاً، بل جاء متوافقاً مع نتائج علوم جمة تناولت التاريخ الإنساني بأبعاده الحضارية وما فيه من إرث يسجل تطلع الإنسان إلى هدف يسعى من أجل بلوغه وإلى ملاذ يلجأ إليه وإلى مثال يتطلع نحو كماله ويعده الغاية النهائية لحقيقة سعيه.

من هنا،كان منهجنافي دراسةخطاب الإمام علي(عليه السلام)على أنّه

خطاب موجه للإنسانية جمعاء، ينطلق من حقيقتين:

الحقيقة الأولى: تتمثل في أن الإمامة ضرورة فطرية تسعى نحوها النفس البشرية كافة، وهذا متوافق مع المشروع الإسلامي وعالميته، وقد تبين لنا أن الناس منذ أقدم أزمنتهم يتمتعون بالتطلع نحوها، والبحث عنها.

والحقيقة الثانية: هي الدور الذي نهض به الإمام علي(عليه السلام)، ليس باعتباره فقط إماماً للمسلمين، بل بما هو مصداق واقعي لذلك السعي الفطري الإنساني الباحث عنه.

وختاماً نسأل المولى عز وجلّ السداد، ونرجوه القبول.

وهو من وراء القصد

المدخل

لا بد لنا قبل التحدث عن الإمام علي(عليه السلام) ومنهجه وطبيعة خطابه الإنساني، من تسليط الضوء على الحدود اللازمة لمعرفة طريقة تناولنا له(عليه السلام) هنا في هذا الكتاب.

لذلك لا بد من الإشارة إلى أنّنا استخدمنا كلمة (الإمامة) هنا كاصطلاح إجرائي، ينفعنا في تبيين أمر تلمسنا جوانبه من خلال اشتغالنا بالطب النفسي بالدرجة الأولى، وبالدور الذي تمارسه علوم النفس في الكشف عن سرائر الإنسانية وإضاءة جوانبه المظلمة.

وقد كان لنا مع مصطلح الإمامة عمل رأينا أن نقدمه في كتاب يشرح أبعاده، واتضح لنا أن خير من يجسد هذا المصطلح، هو الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) لما تمتعت به شخصيته من تمكين وتجسيد لمفهوم المثال الذي دأبت الرسالات السماوية والفلسفات الوضعية على إظهاره للناس كما ذكرنا.

لذلك قد نحتاج أن نوضح هنا، أنّه رغم اطلاعنا على الطرق التي تناول فيها العلماء والكتاب في التراث الإسلامي مبحث الإمامة، إلاّ

أنّنا نحونا منحى آخر اجترحناه لأنفسنا، ونجد أن لهذا المنحى دوراً في تظهير مشهد المعرفة البشرية الدفينة،وإعطاء الصبغة الجلية لها.

ومن البين أن المسلمين اتخذوا لأنفسهم مذاهب في شرح وتعريف الإمامة، وهذا أمر علمي وعملي، فهو الذي يساهم دائماً في قدح شرارة التجديد كلما لوحظ أن تبادأ ما قد أخذ يطرأ على الأذهان، فالحيوية التي يتمتع بها الفكر الإسلامي هي التي تميزه عن بقية الأفكار الموجودة على الأرض، ونقصد دائماً ذلك الجانب الجدلي الفعال في بنية المعتقد الإسلامي، فهو فكر متوثب لا يركن إلى الجمود.

إذن، فالمناهج المتبعة والمذاهب التي يعمل بها الفكر الإسلامي هي ضرورة حيوية، من ضرورات وجوده وبقائه متجدداً باستمرار، ومن الخطأ أن يفهم أن الفكر الإسلامي فكر محدد بأطر لا يمكن تجاوزها، أو الحيد عنها، وإلاّ لكان أُقفل على العقل المسلم منذ نهاية العصر النبوي، وأحكم إغلاقه، فلا يقدر بعدئذ أن يبني لنفسه ما يؤهله لدخول ساحات التقدم العلمي والتقني، لعدم حيازته على ترخيص من سالف الزمان.

والواقع أن العكس هو الصحيح، فالعقل الإسلامي عقل مدقّق فاحص باحث عن المعرفة، سائر إلى تطبيق مناهجه في كل زمان وعلى كل أرض، والذي يمكّن من ذلك كما تقدم هي العلمية والعملية

المنبثقة من الدفع الحيوي الذي يحظى به المعتقد الإسلامي.

بهذا الشكل من التفهم والتعقل، نجد أن المذاهب التي تناولت الإمامة في الإسلام وبذلت قدراً من الجهد في هذا المجال رأت أنّه يكفيها في حينه، كلٌّ بحسب تطلعه وعلمه، وهذا لا يمنع الدارس من تناولها بالفحص والعناية، لإظهار منافعها من جهة، ولإبعاد ما يمكن أن يكون غير نافع في هذا العصر من جهة ثانية.

وبذلك يستمر الفكر الإسلامي بالتجدد، وليس ذلك بتقديس القديم بما هو قديم فحسب، لأن الأشياء المقدسة وغير القابلة للنقد لم تكن محل نزاع بين المسلمين، بل هي تستحوذ على احترام الجميع بلا اختلاف، وإنّما الذي ينشب حوله النزاع، ذلك الذي تشتق منه فكرة أو يستخلص منه رأي أو تصاغ حوله الموضوعات، أما الثابت المقدس كالتوحيد مثلا، والقرآن الذي هو الكتاب الجامع لكلّ مسلم على وجه الأرض، ونبوة محمد(صلى ا عليه وآله) و...، فهي أُمور لا اختلاف حولها. أما باقي المفاهيم المنتزعة من هذه العقيدة بعد ثبوتها فإنها مجال للتناول، ولا نرى غضاضة في إجراء الحوارات، والمناظرات حولها، وهي جارية منذ أرفق سبحانه بنبيه(صلى ا عليه وآله)وتوفاه إلى جواره، ولا نعتقد أن عصراً خلا ولم يتناوب أهلوه فيه المناظرات والمجادلات حول تفاصيل جمة، منها ما هو عقيدي، ومنها ما هو تأملي، ومنها ما هو سفسطي... إلخ.

فالخير كلّ الخير في استمرار المباحثات بين المسلمين، والخطأ كلّ الخطأ في إقفال بابها، وإلجام حوارها، فهي معين يروي ظمأ العطشان، وجنّة تورف بظلالها، وتكثر ثمارها، وينبعث النفع منها كالريح الطيبة العطرة.

من هنا نجد أن الإسهام في دفع هذه العملية واجب وضرورة، واجب على من تؤهله ملكاته ومعارفه ويملك آلته في دخولها، وضرورة من ضرورات التواصل بين المسلمين وشد أواصر القربة، وقطع دابر الفتنة وما ينجم عنها من ويلات وسيئات تحصد الثواب، وتنزل الويل.

ولما كانت الإمامة من المسائل ذات الخصوصية العالية في الفكر والمعتقد الإسلامي، كان الاشتغال فيها أمر دائم، وكانت الأقوال فيها تتراوح بين منحيين أو اتجاهين:

الاتجاه الأول: يدور حول حقيقتها، دوران الموارب غير الموضح تماماً لما يريد أن يقوله فيها.

الاتجاه الثاني: إحكام دائرة الفصل فيها، والقطع بأنّها منحة تحفل بالعناية الإلهية، لا يصيبها أحد وإنّما تُصطفى، مثلما حدثنا القرآن الكريم عن الصفوة الأُولى التي اختارها ا سبحانه.

ولهذين الاتجاهين تفرعات متعددة، منها من انفتح على الآخرين، ومنها من انغلق على نفسه، وقد رأيت بحثها مع الباحثين،

وأن أفرد لها جوانب من هذا الكتاب، ثم بعد أن تصاغ النظرية التي نعتقد أنها تشتمل على آراء الاتجاهين، ونقول ما آلت إليه النتائج، نبسط أيضاً ما توصلنا إليه في هذا العصر الذي يمتاز بالعلم الوفير الذي زود ا تعالى الناس به، والإمكانات التي أتيحت للتعرف على حقائق لم يكن للذين سلفوا الحظ منها، وبخاصة الجوانب النفسية التي تشغل بال الإنسان بشكل يومي.

فما هي الإمامة، وما معناها، وما الفائدة من بحثها، وما ضرورتها عند المسلمين وعند سواهم؟ هذا ما تتولى الإجابة عنه الأبحاث القادمة.

ونبدأ باستعراض سريع لعدد من الآراء المعتبرة عند المسلمين حول هذا الأمر مقدمين لذلك الفصول الآتية:

الفصل الأول: الإمامة ماهيتها ومعناها

يجد الباحث في معرض التساؤل عن ماهية الإمامة في التراث الإسلامي إجابات متعددة ومتنوعة:

ـ منها من حملها على أنّها أمر يختص بالزعامة والقيادة أو الرئاسة.

ـ ومنها من تناولها على أنها فكرة وأدخلها حيز التصورات التي تبحث لها عن تصديق.

ـ ومنها من سار بها نحو التأملات الفلسفية التي تحتمل في تحققها الخطأ مثلما تحتمل الصحة.

ـ ومنها من رآها شأناً إلهياً كالنبوة، ليس للناس من قرار فيه.

ـ وهناك من نأى بها عن فن المعقولات وسار بها نحو الفقهيات، يريد بذلك إدخالها منطقة الاستنباط، وإخراجها عن دائرة الأُصول التي يبحر العقل وراء إدراك كنهها، ويرتفع بها عن مقام المعاملات، ليصير إلى فلسفة المعرفة.

لكن أصحاب هذا الرأي الأخير لم يدركوا أن الطريق الذي تبحث فيه مسألة الإمامة ذات منحى عقلي تأملي، أكثر من كونه استنباطاً لحكم، أو إقراراً بحلال وتحريم لحرام.

ويرد على سبيل المثال هنا لا الحصر كلام الغزالي في معرض شرحه لموقفه من موضوع الإمامة حيث يقول: "اعلم أن النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمات، وليس أيضاً من فن المعقولات، بل من الفقهيات، ثم إنّها مثار للتعصبات والمعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ! ولكن إذا جرى الرسم باختتام المعتقدات بها، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد..."(١).

لا يخفى أن المعتقدات شيء والفقهيات شيء آخر، وللغزالي باع في الأمور الكلامية التي تصب في فلسفة العقائد، وربما داخل هاتين الإشارتين نجد مساحة للتحرك، مفادها أن إقصاء الإمامة عن أُصول العقيدة وإدخالها في باب الفقه ليس في غاية الإحكام، بل هو مجال لاستمرار البحث فيها، ولا تلتزم مفردة "اعلم" التي يستخدمها المعلمون المسلمون قديماً كختام أو تمام للفكرة، وإن على المهتم أن لا يعتبر ما جاء هنا هو ذروة الصواب، بل كما أسلفنا

١ـ الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: ٢٣٤، وعنه السبحاني في الملل والنحل ١: ٢٩٥، والواقع أن الكلام حول هذا الأمر كثير في التراث. ويمكن الرجوع إلى آراء المتكلمين المسلمين للتوسع في مفهومهم للإمامة فهناك عدد كبير منهم لم يخرج عن رأي الغزالي كثيراً.

يجب أن تتحرك المسائل ضمن مضمار الأخذ والرد، ولا تقفل الأبواب أو تقطع الطرق على الراغب في الاستزادة.

ولا ندري إن كانت تنفع مفردات مثل "المعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها"، أو "إنها مثار للتعصبات"، أو "مثار للفتن والشحناء"(١) يقصد منها الكفّ عن البحث في الإمامة وإقامتها، أم يقصد فيها إثارة ذهن الباحث نحو جلاء مثل هذه الحقيقة! وأرى ترجيح الثانية، والسير على هذا الترجيح.

ويتضح لي أن الإمامة مفهوم جميع ما تقدم، وعلى هذا المفهوم تترتب النتائج التي تكون أكثر شمولية، وأشد تعبيراً من المناصب الإدارية أو السياسية أو العسكرية أو الاجتماعية، لكن لبلوغ هذا المفهوم يحتاج الراغب لمزيد من العناء، ولا نقصد بالعناء هنا المشقة من أجل الوصول إليه، لأن الإمامة والإمام أمر لا ينبغي معه الغموض، مثلما لا يجب أن ينشب حوله خلاف من نوع ذاك الذي يقسم الناس إلى فرق وأحزاب، إنّما الواجب أو الضروري ـ بمعنى الحتمي ـ أن يكون الإمام هو الجامع والرابط بين الناس، الجاذب لهم والموطد لأواصر التقارب والتلاحم فيما بينهم، هذا هو الأمر الطبيعي والسليم، الذي يرسل ا تعالى الأنبياء عادة ويزودهم بالأوصياء من أجله.

---

١ ـ انظر غاية المرام في علم الكلام للآمدي: ٣٦٣.

أما مخالفته، فإنّها تدخل في باب مخالفة الفطرة التي فطر ا   الناس عليها، الأمر الذي يلزم عنه بالضرورة شعور الإنسان بالضنك وقسوة العيش، لأن الإعراض عن الفطرة الإلهية والإعراض عن سبيل ا   هو الذي يورث المشقّة، وهو الذي يجعل الإنسان يتخبط على غير هدى.

وليس المقصود بضنك العيش هنا: الاحتياج والفقر، أو الشعور بالظلم وما شابه ذلك، إنّما المقصود هو اغتراب النفس وابتعادها عن راحتها وطمأنينتها بالدرجة الأولى! فكم من موسر، وكم من جبار، وكم وكم من أولئك الذين يتصور الناس أنهم بلغوا رتبة السعادة في الحياة الدنيا، تجدهم في حقيقة أمرهم يعانون من آلام القلق والاضطراب، وعدم الاستقرار والسكينة.

ويجد المتابع للمنهج القرآني أن ذروة الدعوة لديه منصبة على إخراج هذا الكائن البشري من مثل هكذا ضنك، والدفع به نحو مدارج السعادة، لكن هذا لا يتحقق بحسب الطرح الديني على أساس حلّ المشكلات الحياتية اليومية كما يتصور البعض، وإن كانت الراحة شي حاسم في هذه الحلول، وإنّما يتحقق على أساس فك رموز الوجود والتعرف على معناه، الأمر الذي يوطّد لمعرفة الغاية من ورائه، وعند هذه المعرفة بالذات تستوي اللذائذ الدنيوية مع الآلام، لتشكّلان بالنسبة للعارف بهذه الحقيقة بعداً مادياً ليس هو

المقصود من وجوده، فيتألق في السير نحو بعده الحقيقي، الذي هو جوهر ذاته.

وهنا عند هذه النقطة تكمن أهمية معرفة الإمام، بحسب ما جاء عن الإمام الرضا(عليه السلام)في معرض وصفه للإمام، انّه "معدن القدس والطهارة"(١).

ولا نخال أمراً أكثر عسراً وأكثر إيغالا في التشويش من ذاك الذي يجرف المرء نحو الشكل وينأى عن المضمون، لذلك وجدنا هذا الجدل وهذا الصراع ـ إن صحت العبارة ـ حاصل بين من يعتبر أن الإمامة أمر دنيوي يمكن أن يقوم به ويتكفّل بتنفيذ مهماته شخص يتمتّع بصفات معينة أو قدرات أهلته أن يتربع على كرسيها، حتى يدير شؤون الناس ويمارس زعامته وإمكاناته في رئاستهم، وبين من يعتبرها شأناً إلهياً صرفاً يجعله في من يختار من عباده، ولا يكون بعد ذلك من هدى واقعي بمخالفة هذا القانون.

والحديث الآن حول مفهوم الإمامة، ثم نتحدث بعد ذلك عن ماهية الإمامة.

ما هو المفهوم

يرمز المفهوم عند المناطقة إلى ما ينتزعه الإنسان من الخارج من

---

١ ـ انظر: الكافي للكليني ١: ٢٠٢، كتاب الحجة.

حقائق الأشياء مشكّلا بذلك صورة ذهنية لها(١)؛ وهو الشكل المنطقي الذي تبنى من خلاله باقي أشكال الفكر (الحكم - القياس) ويتيح التعمق في معرفة الواقع أبعد مما يسمح له الإحساس والإدراك والتصور وهو في النتيجة "خروج عما يعطى لنا مباشرة من التجربة الحسية"(٢).

ونحن عند اختيارنا لهذا التعريف، رمينا إلى ما يقود الفكرة نحو عمقها، للخروج بها عن معطيات الظاهر، بالطبع بعد أن أخذت شكلها وتسميتها بالنسبة للتجربة الحسية التي ندركها كما أدركها من سلف، لأن الشيء لا يعد موجوداً بالنسبة لشعورنا إلاّ عندما يلد فكرة تصبح برهاناً على وجوده في عقلنا، وعندما يتيح ذلك يصبح حضوره وجوداً حقيقياً، وحينئذ تنكشف شخصيته ويوضع بالتالي اسم يطلق عليه، تلك هي عملية الإدراك(٣).

فالاسم هو أول تعريف للشيء الذي يدخل نطاق شعورنا، وهو تصديق على وجوده، وهو بهذا الوضع أول درجة من درجات المعرفة وأول خطوة نخطوها نحو العلم، وإذا كان الاسم بهذا المعنى هو الدرجة الأولية في المعرفة، فإن المفهوم هو الدرجة الأوسع

---

١ - محيط المحيط، مكتبة لبنان، ص٧٠٤.

٢ - المعجم الفلسفي المختصر: توفيق سلوم، ط موسكو ص٤٧٠.

٣ - انظر كتاب الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، محمود الخالدي، دار الفكر، عمان ط١، ١: ٣٠، وما بعدها.

والأشمل، وهو الذي يمنح لهذا الاسم معناه.

لذاك عند إطلاق تسمية (الإمام) على الرجل الذي يتزعم أو يقود نجدها لا تصلح لأن تبلغ مفهوماً! بمعنى أن الأمر هنا هو انطباق المصطلح على من يقوم بتنفيذ أمر ما، وهذا لا يقود نحو تجريد الاسم وبلوغه المعنى الذي يتيح التعمق وبلوغ الحقيقة التي هي شي غير القيام بالفعل، وسوف نجد مثالا على هذا في قول ابن حزم مثلا "إن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام ا ، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول ا (صلى ا عليه وآله)"(١).

وينبغي علينا أن نفرق تماماً بين القائم بالعمل على أن هذا العمل أمر موكل إليه من قبل الناس، لبراعته فيه وتمكنه وفق مؤهلات تملّكها، أو سلطان خوله القيام عليه، وبين الإمام بالمفهوم العميق الذي أورده الإمام الرضا(عليه السلام) عند وصفه للإمام، فهو لا يزجي إليه مهمة تكون ضمن إمكانات العاديين من الناس، وإن اشتمل بالعرض عليها، وإنّما هو يتعمق إلى جوهر الإمامة، فيقول(عليه السلام): "الإمام عالم لا يجهل، وراع لا ينكل، معدن القدس والطهارة، والنسك والزهادة، والعلم والعبادة... نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر ا عز وجلّ،

---

١ ـ الفصل بين الملل والنحل لابن حزم ٤: ٨٧.

ناصح لعباد ا ..."(١).

إذن بعد النظر إلى وجهة ابن حزم، التي يمكن أن تعبر عن معظم من تحدث حول الإمامة ووظائفها من الخارج، والتأمل في توصيف الإمام الرضا(عليه السلام) وما يتفرع عنه من آفاق تقود نحو الكشف عن حقيقة الإمامة ومعناها وجوهرها، نجد لزاماً قبل الاستغراق في متابعة هذين المنحيين في التناول، أن ننظر في الجذر اللغوي لكلمة (إمام)، الأمر الذي يساعدنا على تخطّي الكثير من صعوبات البحث.

الإمام في اللغة

جاء في الصحاح: "هو الذي يقتدى به"(٢)، وكما هو واضح هنا فهي تفيد التعميم، ولا تختص بتفصيل يقود إلى معنى دقيق وحقيقي، فالذي يقتدى به يمكن أن يكون شخصاً يتمتع بالفطنة والذكاء، ويمكن أن لا يكون كذلك، ويمكن أن يكون آلة، ويمكن أن يكون معلماً من معالم المنفعة، بالطبع نحن نعلم أن المقصود هنا إجمالي، لكن حديثنا يجب أن يعطف على الفور على رغبتنا في إظهار المفهوم، لذا تقتضي الدقة أن يحاط بجميع أطراف التعريف، حتى يصار إلى انتزاع المفهوم الذي يتيح التعمق كما سبق.

---

١ ـ انظر: الكافي للكليني ١: ٢٠٢، كتاب الحجة.

٢ ـ الصحاح للجوهري: ٥، مادة إمام.

وجاء في لسان العرب: "أم القوم وأم بهم: تقدمهم، وهي الإمامة، والإمام: كل من أئتم به"، ويفصل ابن منظور هنا فيقول: "يكون الإمام رئيساً كقولك إمام المسلمين، ويكون الإمام الطريق الواضح، ويكون الدليل، ويئم: يقصد"(١).

وأورد من محيط المحيط في إظهار معنى الإمام من الناحية اللغوية قوله: "فالإمام هو قيم الأمر، والمصلح له"(٢).

وقال الراغب: "والإمام المؤتم به إنساناً كأن يقتدى بقوله أو فعله، أو كتاباً أو غير ذلك، محقاً كان أو مجملا، وجمعه أئمة"(٣).

هذه الطائفة من التعاريف اللغوية تشير بأشكالها هنا إلى عدة معان، وإن بدت جميعها تبحث عن إجمال المعرف وتحديده، لكن لكل واحد منها فيما يبدو شكلا مستقلا إلى حد ما عن الآخر، وإنّما في عمومها تشير إلى من يحمل صفة التقدم والإمساك بزمام الأُمور بما فيها الزعامة، أي رئاسة القوم والمرجعية العقائدية، أي المرتكز الفكري والدليل الذي يحدد الاتجاه.

وكذلك تفيد الإشارة إلى صاحب المقام أو المنزلة الذي يقصد لجلال معين، وتظهر أيضاً أحد معانيها القيام بالأمر الاجتماعي،

١ـ لسان العرب لابن منظور مادة: أم.

٢ـ محيط المحيط، بطرس البستاني، دار لبنان، ط ١٩٧٧، ص١٦١.

٣ـ المفردات لألفاظ القرآن الكريم للراغب الاصفهاني: ٢٤.

والمحافظة على أمور تم التوافق عليها عند ذكر كلمة (قيم) أو (مصلح).

فقد أخذت هذه التعريفات بمحاولة الإحاطة بالهدف، لكنها كما يلاحظ تخفق في إصابة كبد الحقيقة! وهذا الأمر ليس مستنكراً لدينا، فالمعنى المقصود أوسع بكثير من العبارة، لذلك يمكننا أن نعتبرها تمهيداً معقولا لإجراء اختبار موضوعي على مصطلح الإمام وفق المتّجه النفسي الذي نجريه هنا، والذي نمهد له بالتالي.

الإمام في عمق النفس البشرية

إن ما تقدم من البحث في التعريف والمفهوم، يساعدنا على القول، أن الإمام المرجو الإفصاح عنه خفي على الظهور، بقدر ما هو واضح وجلي في عمق النفس الإنسانية.

وسنحاول هنا أن نعمل على نقل هذا الوضوح من العمق إلى السطح بالمقدار الذي يمكننا من إزالة الحجب، حتى تصبح الإشارة فيما بعد إلى حقيقة الإمام إشارة لا يشوبها غموض. وقد أمعنا النظر في الوارد هنا من تعريفات، ولاحظنا أنّها تعطي تقريباً لغوياً للمفردة، وفي عدة أمكنة نلاحظ سيراً أشد عمقاً نحو إلحاح المفردة على إظهار معنى أكثر عمقاً، وهذه حاجة ضرورية، إذ أن التفسير اللغوي يعتني عادة بالإبلاغ عن الأمر أكثر بكثير من البحث في

جوهره ومعناه الحقيقي. وإن الذي يساعد على ذلك فيما يبدو، نسق آخر من أنساق التفتيش خاف هذه الحقيقة وسنجده هناك في عوالم النفس.

فثمة في عمق الإنسان ذلك التطلع نحو هدف تنشده نفسه، وعندما نتحدث عن الإنسان فإننا لا نحصره بعرق أو قومية أو دين إنما عني منه مطلق الإنسان، شريطة أن لا يكون فاقداً لقواه العاقلة الواعية. والهدف الذي تنشده النفس في عمقها يكاد يكون على درجة عالية من الغموض، ولعلّ هذا الغموض من شأنه أن يجرفها نحو عدة اتجاهات، مع ملاحظة الاختلاف في طبائع البشر، وشدة أو ضعف الأحاسيس إنّما في الغالب وفي نهاية المطاف تحمل تلبية الحاجة المستقرة في أعماقها، لأن الدأب والبحث سوف يصلا إلى تلبية لا بد منها، تشعر معها النفس بشي من الاطمئنان، بخلاف ذلك الاضطراب والقلق.

يقول أريك فروم: "لا يوجد إنسان ليس محتاجاً إلى دين ما، ولا يريد تحديداً للاتجاه والموضوع الذي ينبغي له التعلق به"(١) يريد بهذا القول: إن الغرض الدفين في العمق الإنساني هو هدف يسير بالإنسان باتجاه تعلق من نوع ما باتجاه نداء يسحبه من

---

١ ـ البحث النفسي والدين، أريك فروم: ضمن الإنسان والإيمان، مرتضى المطهري، منظمة الإعلام الإسلامي ط٢، ص٤٣.

أعماقه، دون أن تكون لديه المقدرة على تجاهله، وإن هو تجاهله لوقت أو لحال من الأحوال فإنه ينقذف ـ في لحظة معينة من داخله ـ شعور يجعله يضطرب متساءلاً عن فحواه، فمتى قاده هذا الشعور إلى عقيدة أو دين أو إيمان من نوع ما فإنه سوف يسعى لأن يعبر عنه بأي طريقة تتناغم معه،وتشعره بانتهاء قلقه، أو انتهاء شي منه.

فالنظر إلى الحقيقة الإنسانية من هذا الجانب العميق، هو نظرة إلى الفطرة، ولعلّ الفطرة وحدها هي التي تتكفل بتفسير هذا النزوع نحو الاتجاه الذي يلزم فكر الإنسان بالتجول في أنحائه.

الفطرة

لعلّ المقصود بالفطرة هنا: هي تلك الأهلية المتوفرة داخل النفس والتي تشير إلى أكثر حالاتها صفاء، قبل دخول وتراكم المعارف عليها، وهي بهذا اللحاظ تعبر بصورة مثلى عن الاحتياجات التي تجذب نحو تعلّق الإنسان.

ومن المستحكم يقيناً أن التدين أمر غريزي، أو فطري.

والتدين بأحد المعاني، هو اعتقاد من نوع ما، يستلزم فكراً مجرداً من جهة، ويستلزم أيضاً تعلّقاً عاطفياً من جهة أخرى.

وهو من هاتين الجهتين يحقق انسجاماً وتناغماً مع الإنسان، بما يشتمل عليه ذهنه من أُمور تعمل وتسير نحو التجريد والبحث عن

حقائق الأشياء وانتزاع المفاهيم الخاصة بها، وإقامة البراهين والأدلة العقلية على نظريات تلازمه في حياته، وبين ما تحتاجه النفس من اتساع وخروج خارج الأطر والحدود المادية، بما يساعدها على سد بعض الثغرات التي تعتريها، وتسبب لها الاضطراب والقلق.

ولعلّنا حين نتدرج في بحثنا هذا على النحو الذي يعطي ثماراً بعد الإحاطة بالغاية، فإن هذه الثمار سوف لن ينالها من لم يتغلب على العوائق التي تهمين على النفس، والتي تنشأ عادة من تراكم المعلومات التي يكتسبها الإنسان عن طريق التقليد وسائر الأسباب الاتفاقية، والتي تترك لها آثاراً فيه، ينفعل معها بما يلائمها(١).

ونحن إذ نتطلع إلى الإمامة، فإنّنا ننظر في مفهومها وفي ماهيتها باعتبار الحاجة إلى معناها الذي تقوم عليه الدلائل، عندما يصار إلى المفارقات التي تنسجم واقعيتها معها، ورأت فيها أدواراً يؤديها هذا الكائن البشري أو ذاك، لما يتجلّى به من ميزة، أو فضيلة، أو مكرمة، أو ما شابه ذلك.

لذا فالمعرفة الإنسانية من جانب البعد التركيبي النفسي، ومن ميدان السبر والتحليل الذي ينطلق منهما مفتاح الدخول إلى أغوار النفس البشرية، وجدنا في هذا المكان مجالاً لقراءة الدافع أولاً نحو

---

١ ـ انظر: علي والفلسفة الإلهية، السيد محمد حسين الطباطبائي: ٣٩، وما يليها.

التدين، ثم الغاية التي تتلو آياتها مفردات السير نحو مدرج الكمال.

وهنا نستعير هذا المقتبس من صاحب تفسير الميزان، حيث يقول: "إن على الإنسان أن يتجرد عن جميع معلوماته التي اكتسبها عن طريق التقليد"(١) يريد جلاء الفطرة وإظهار حقيقة النفس بدون شوائب، وهو إذا بلغ ذلك عن دراية وعلم، فإنّه يتحرك سائراً نحو مراتب المعرفة الجوهرية الحقة، والتي تقوده يقيناً إلى غاية سوف نصل إليها مع متابعة بحثنا حول التدين.

وإذا كان في علماء النفس من قال: "إن الدين غريزة في الإنسان"، فإن هذا القول لم يفارق الحقيقة، لا لأنّه صدر عن عارفين بواقعها، وإنّما لأن الجاذب للنظر أن الأطوار التي مرت بها البشرية منذ القدم، وما تركته حضارات الأمم السابقة، يقطع الطريق على أُولئك الذين يقولون باختراع الدين الناتج عن حاجة الإنسان الظاهرية إلى قوة يرهبها.

ومن المتيقن أن مثل هذه الحاجة ليست ظاهرية، بل هي ـ إنما وجدت ـ للتعبير عن التعلق الكامل، وليس عن التعلّق الناقص، وهنا ينبغي لنا أن نعترف بأن هذا الدافع نحو التعلق بأي شيء هو ناتج عن حاجة، لأنه لو لم تكن هنالك حاجة لانتفى وجود التعلق، والأمر بهذا اللحاظ غير منقطع إلى حاجة دون سواها، بل هو مسار تتابعي.

---

١ ـ المصدر نفسه مع بعض التصرف.

فإن ذهبت الرغبة نحو طعام مثلاً فإن مجرد الحصول عليه وتناوله يكفي لقضاء هذه الحاجة، وبالتالي لا تكون هدفاً سامياً يتوجه إليه الإنسان بالكلّية، وهكذا سائر الحاجات مما يمكن تلبيتها، أو تحصيلها أو القبض عليها، من قبيل المال والسلطان واللذائذ جميعها، فإن إمكان الحصول عليها لا يجعلها هدفاً نبيلاً يستحق أن يسقط الشهداء من أجله مثلاً مع الاحتفاظ بما يبذله الإنسان من جهد ومشقة، ومن أجل تحصيل هذه الحاجات، وإنما الذي يستحق أن نحث السير إليه هو ذاك الذي يجعل الإنسان في لحظة من اللحظات باحثاً عن غاية غير دنيوية، أي مندفعاً نحو إشراق تتحرك إليه جوارحه بلهفة، وراغباً في صرف تعلقاته القلبية عن الغير، متوسلاً صرفها نحوه(١).

ولا يمكن بلوغ مثل هذا الشعور إلاّ عبر التجرد، لأن شعوراً ينبع من حاجة تلح دائماً ولا تشبعها اللذائذ المادية، هو ميل في الواقع نحو مطلق لا تقيده قيود، ولا يكتفى منه، ولا يستغنى عنه، وهو بعدئذ ليس اختراعاً يصوب نحوه سهم الخطأ أو الصواب، إنما هو الذي يضع ـ بعد التجرد ـ اللبنة الأُولى في مقام المعرفة، وهو المقام الذي يشير إليه الإمام علي(عليه السلام) عند قوله في معرفة ا تعالى: "أول

١ ـ انظر: سر الصلاة أو صلاة العارفين، الإمام الخميني، تعريب أحمد الفهري مؤسسة الإعلام الإسلامي، المقدمة.

الدين معرفته"(١).

وعلينا أن نقف عند هذه الجملة هنا لأهميتها، فهي تشير بوضوح إلى أن المعرفة بذاتها على درجات، ولسنا هنا بهذا الصدد، وإنّما نلفت إلى أمر آخر، وهو أن الإمام علي(عليه السلام)، عندما قال: "أول الدين"، لم يقصد به فقط الدين الإسلامي الحنيف، وإن كان هذا الأمر مقصوداً بلا شك، لكننا نستفيد هنا من إطلاقه لكلمة الدين أنّه يشير إلى ذاك الجانب من ذات الإنسان الذي يبعث له تلك الحاجة، ويسوقه نحو التعلق.

وهذا ما قلناه عن (غريزة التدين عند الإنسان)، وهذه المرتبة الابتدائية التي يحققها المرء بعد التجرد الأولي، ثم تليها المراتب التي يشير إليها(عليه السلام) تتابعياً: "وكمال معرفته التصديق به"(١)، وهي المسيرة التي يقطعها الباحث متدرجاً في إزاحة العوائق والحجب.

وإذا أردنا أن نلاحظ عن كثب الكيفية التي يتناول فيها هذه المراتب، سنجده يوصل مراحل التطور البشري بعضها بالبعض الآخر، وقبل أن نقف على هذه الحقائق التي سوف نفرد لها مكاناً من هذا الكتاب، نود أن ننجز ما نمهد به نظرياً لذلك.

والذي يبتدئ من هنا، هو بلوغ منطق الميل الذي يحفز قلب

---

١ ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ١.

٢ ـ المصدر نفسه.

الإنسان نحو هذه المعارف، ونحن أشرنا إلى أن الإنسان هنا غير مرتهن بعرق أو قومية أو دين، إنّما نقصد العنصر البشري الذي يستحكم فيه أمران: أحدهما غريزي، تسير معه آلته الجسدية إلى منتهياتها، والثاني عقلي، ينطلق نحو المعارف والتأملات التي يحدث منها جملة منافعه وسواها في مسيرته الحياتية.

ولما كان التدين بالمعنى العام، اعتقاداً يستلزم الفكر المجرد مثلما يستلزم التعلق العاطفي الذي يؤدي دوراً من أدوار إشباع الغرائز، كان بذلك متناغماً مع الإنسان، بما تشتمل عليه الضرورات

من أُمور نظرية، وأُخرى تطبيقية عملية، فمن أين تأتي لنا هذه الحاجة إلى التعلق بعد ذلك؟ وكيف تنبعث التعبيرات عنها بهذا الشكل أو ذاك؟ لا بد من التعرف على جذورها أولا.

منشأ وجذر الميول

في المساحات التي يشغلها البشر فوق الأرض، وفي الأماكن القابلة للحياة منذ القدم، ثمة ما ينضح بالعلاقة الناجزة بيننا وبين مجهول محبب، لا ينفر منه القلب، ولا تخاله المشاعر.

ويرى "وليم جيمس" أنه: "مهما كانت دوافعنا وميولنا نابعة من هذا العالم، فإن أغلب ميولنا وآمالنا تنبع من عالم ما وراء

الطبيعة"(١)، أي من مكان آخر غير مرئي لكنه قائم على اتصال ما بهذا العالم، وهذا الاتصال وإن بدا وكأنه مجهولا لا يخامر الحواس الخارجية، لكن العلم يعول عليه كثيراً عند الذهاب نحو التحقق من نوازع الإنسان، لكن إذا صح قول "جيمس" كان الذي يترتب عليها بلا شك هو البحث عن الوسيلة التي يستقبل عبرها الإنسان هذه الميول من عوالم أُخرى، ليس فقط الميول وإنما الآمال أيضاً.

ويرى "كانت" في تبرير هذا الأمر عند إحالته إلى إدراك الوجود ووعيه، أن ثمة ارتباط ضروري غير طارئ، محايث للوجود زماناً ومكاناً، يقول: "إنني بادراك وجودي، وارتباطي بعوالم تعلوها عوالم، وبانساق أنساق إلى زمان لا حدود له من ذاتي المنظورة، أرى أنني لست على ارتباط عارض محض، بل على ارتباط كوني ضروري"(٢).

ولا شك أيضاً أن هذا الإدراك موصل إلى حقيقة، ولهذه الحقيقة عمق في النفس "الذات البشرية" بين الفينة والأخرى تتصدع الحجب دونها، فتظهر غير عابئة بالطريق، ويلهج بها اللسان، أو يعبر عنها القلم، ولهذا الارتباط الكوني امتداد كما لهذا الامتداد رموز

---

١ ـ الدين والنفس، ضمن الإنسان والإيمان، مرتضى المطهري، منظمة الإعلام الإسلامي، ط٢، ص٤٣.

٢ـ نقد العقل العملي، عمانؤيل كانت، أحمد شيباني، دار اليقظة العربية ـ بيروت ٩٦٦، ص٦٢.

وإشارات، تعوز الإنسان كي يلتقطها من ناحية الكيفية والحالة، بحيث يصبح بمستطاعه التعرف على الطرائق التي يتلقى عبرها ذاك الشعور بالميل والدافع من منبعه الأصلي.

ودعونا قبل أن تنحرف الفكرة عن محجتها، أن نؤكد أن الميل الذي تعنى به هذه الأسطر، هو ذاك البعد من الفطرة، والتي تشير إليها كلمات الإمام علي (عليه السلام) عند مواصلة إفصاحه عن طبيعة الكون والخالق، ولعلّنا نجد في كلماته هنا المنهل الأكثر عذوبة في دراسة الأحوال النفسية التي تتراكم فوقها الحاجات فتحيد بالمرء عن بلوغ قصاراه، ونقرأ هنا هذا الشاهد.

يقول(عليه السلام): "واصطفى سبحانه من ولده ـ أي آدم ـ أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم (لما بدل أكثر خلقه عهد ا إليهم)(١)"(٢)، ونضع بين قوسين كلمات تفيد الإنسان الذي يتحدث (كانت) عن ارتباطه الكوني الضروري، وهو إنسان تلهج ذاته نحو عوالم تداخل معها، ولا يجد له من محيص عن الإقرار بها.

لكن الواقع أن تسمية هذا الأمر هي محل العناية، فبأي طرائق المعرفة يصل إدراك وجوده، لعله بطريق الاستماع إلى الإيقاع

١ـ اخذ عليهم الميثاق أن يبلغوا ما اوحي اليهم، ويكون ما بعده بمنزلة التأكيد له وأخذ عليهم أن لا يشرعوا للناس إلاّ ما يوحي إليهم وهو المقصود. بميثاق الفطرة.

٢ـ انظر: نهج البلاغة: الخطبة ١.

الكوني الذي يهدد داخله ولا يفصح له عن لغة يصور بها الحالة التي هو عليها، لكن الكلام الآتي للإمام علي(عليه السلام)يمكننا من التقاط خيط هذه المعرفة.

يقول(عليه السلام): "فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه (ليستأدوهم ميثاق فطرته)، ويذكروهم منسي نعمته"(١)، إن ما بين القوسين هنا يشير إلى أن الأنموذج البشري جميعاً وهو الذي يمتلك خاصيات مشتركة تؤهله لأن يبلغ مراتب المعرفة، ويزيح عن ذاته براقع النسيان، ومن المعروف في علم النفس أن ثمة مصطلح يستخدم للتدليل على أن الناس يتوارثون الذكريات، إضافة إلى عناصر الميراث الأخرى فيما يطلق عليه اسم (الذاكرة السلالية)، وعند الرجوع إلى مراحل نمو البشر الحضارية، فإن الآثار تشير إلى أن التدين من الأمور الثابتة في حياة الأمم، ولا نقصد هنا التدين أي الالتزام بنسق ديني واحد، لا حياد عنه وإنما المعروف أن للشعوب عقائد وعبادات وطرائق في التعبير عن ميولها الدينية لم تفارقها منذ أوائل ظهور الحياة.

وقد سبق وأشرنا إلى مقولة الإمام علي(عليه السلام) في أولية الدين، وهو يشير إلى كل أولية دينية، أي معرفة ا ، وقلنا: أن هذا الكلام ينسحب على أي دين أو عقيدة، ترتكز في فكرتها على "ا "، وهذا

---

١ ـ المصدر نفسه.

متوفر في الأثر البشري، مثلما يدلّل عليه كلامه(عليه السلام).

ويدلّل عليه بالدرجة الأولى قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث ا النبيين مبشرين ومنذرين)(١) والذي يفهم منها أن العهد الأول للإنسان، هو عهد الفطرة التي لا اختلاف بين البشر حولها، ومع تقادم الأزمنة وتباعد الأيام، اختلف الناس تدريجياً إلى أن بلغوا من الاختلاف مبلغاً احتاجوا معه إلى تدخل العون الإلهي فزود ا رسله بالكتاب الذي يفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، لكن الاختلاف بعد قيامه، أصبح يلبس لباس الاستمرار، وصار الإنسان أو قسم من بني الإنسان إلى النسيان، وإلى ما يحجب بينه وبين ميثاقه، بينه وبين فطرة ا التي فُطر عليها. وقسم آخر استجاب لداعي الرحمة، فمن ا عليه بالثبات على عهده بحسب ما تفيد متابعة الآية الشريفة، وما يواصله الإمام علي(عليه السلام) من كشف حولها حين يقول الإمام علي(عليه السلام): "لما بدل أكثر خلقه عهد ا إليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله"(٢)، وفي الجمع والتأمل، بين قوله تعالى في الآية الآنفة وبين ما جاء به الإمام علي(عليه السلام)حول التفصيل في ذات الغرض، ونلاحظ استمرار الإرث البشري الذاكراتي وتقلبه

---

١ ـ البقرة: ٢١٣.

٢ ـ انظر نهج البلاغة: الخطبة ١.

بين الشعوب، إلى أن يصل عند علماء النفس والفلاسفة إلى القول بالارتباط الضروري الكوني، وبأن الميول لها منابع فوق الطبيعة، وأن الإنسان مجهز سلفاً بغرائز ودوافع مختزنة في ذاته منذ المرحلة الجنينية، نصل إلى أن الجنس البشري يشترك بعناصر من الحنين تتشابه فيما بينها، وهذا الحنين إلى شي ما يظهر بين الحين والآخر ويربط ما بين الأجيال.

ويمكن التقاط بعض مميزاته في الإبداع أكثر من المجالات الأُخرى، كالفن والشعر مثلاً وأصناف ُأخرى من الأدب، وهنا نجد كلاماً لـ "اليوت" الشاعر والناقد الأميركي، يقول: "لا شاعر ولا فنان يملك معناه الكامل لوحده... أن الذي يجري عند إبداع عمل فني جديد، هو شي ما يحدث بشكل متزامن لكلّ أعمال الفن التي سبقته"(١).

ويرى أن وتراً ما يربط وبشكل مستمر لا ينقطع بين جميع ما ينتج عن إبداع، وهو لا يخضع هذا القول لعنصر الزمان، بمعنى أنه لا يقصد تاريخاً معيناً، بل يجري هذا القول على جميع النتاج الإبداعي البشري، عند الكلّ وليس عند فئة من الناس، وهذا مفاده أن التجربة الإنسانية جمعاء تشترك في صياغة الإبداع، ويتشكل دائماً ذاك المعنى الذي لا يكتمل أبداً، فالإضافة الإبداعية تعطي جديداً، لكنها

---

١ ـ مقالات منتخبة، ت، س اليوت. ط لندن ص٢٨٩ (النسخة الإنجليزية).

لا تختم الإبداع، وهذا فيه الكثير من الصواب في رأينا، فالتراث البشري يمثل شراكة إنسانية، ويتنوع فيه العطاء، لكنه في المحصلة هو المشكّل للذاكرة، وهنا مكمن أهميته، ليعود تدريجياً إلى بدايات الناس، ثم يعود إلى العلاقة التي يشترك فيها العمق البشري النفسي بالإبداع، فالكل يربط بين النفس والشعر مثلاً، ليقولوا في النهاية: إن المساحة التي يتحرك فيها الشعر هي مساحة فوق المألوف(١)، وهي ذاك المجال النفسي الذي لا يخضع في جوهره لقوانين الزمان والمكان، إلاّ بالمقدار الذي تحكمه فيه آليات الجسد، وهو بخلاف ذلك قد يحار المرء في المنشا أو المكان الذي يصدر عنه، ولهذا الكلام مكان في آراء الشعراء والبلاغيين والنقاد العرب منذ القديم حتى العصر الراهن، ونظن أنه إلى المستقبل يمتد أيضاً، وربما دلّ مؤسس المذهب (السوريالي) في سورية على ذلك عند قوله: "ان العقل الباطن يحاول دائماً أن يوجد تلاؤماً بين جميع العناصر التي تعيش مجتمعة فيه، وتنفرد إحدى هذه المحاولات بتمثيل حالة إنسانية عامة، تنبثق من الفرد وكأنه كل ما مر وكل ما سيأتي من أجيال"(٢).

---

١ ـ للتوسع في هذا المجال، يرجى الرجوع إلى كتابنا، جدلية النفس والشعر عند العرب، ط دار يعقوب دمشق ٢٠٠٠، عدة أماكن، وبالخصوص ينظر بحث تحت عنوان في النفس (الروح) والشعر.

٢ ـ مقدمة سوريال، أورخان ميسر، ضمن نظرية الشعر، محمد كامل الخطيب ط١، وزارة الثقافة ١٩٩٧، مرحلة شعر ق٢ ص٧٠١.

فإذا كان الإبداع يجسد هذه الحركة المترامية الأطراف بين أزمنة الناس، وهي تملك هذه القدرة على تمثيل هذه الحالة، فإن أكثر ما يقربها من الحقيقة انتماؤها إلى ما يمكن أن نطلق عليه البعد الفطري في الإنسان.

قوة الفطرة في معرفة الإمام

إن هذه القوة الموجودة في الأعماق والتي يشترك فيها أفراد هذا الجنس، هي قوة ذات بعد فطري، ولعل هذا البعد هو الذي يعول عليه عندما يشتد البحث عن الهدف الذي تبحث عنه أو تنزع نحوه الميول والحاجات الدفينة في أعماق الناس.

وانّنا سوف نثير هنا في نفسية القارئ الكريم رغبة أو شهوة معرفة ما تؤول إليه حقيقته، أياً كان الدين الذي يعتنقه، أو المذهب أو التيار، لأن الواقع الذي تجري وراءه هذه الفكرة، هو مجال الإنسانية وليس مجال الفئوية أو الفردية.

ونحن سوف نعتمد على هذه القوة في السؤال عن (ما هو الإمام).

وبداية نقول أن هذه القوة مزودة بالقدرة على المعرفة التي تجتاز ظواهر الأشياء والنفاذ إلى ماهيتها، فيما لو تشكلت غير آبهة بالشوائب، وبمعنى آخر: فيما لو أمكن إزاحة ما يعلق فيها من

تراكمات تسدل عليها طبقات من الحجب، بحيث يصعب معها تحديد الغاية الحقيقية التي تهفو إليها.

وهذا البعد في الجوهر يساوي العقل الذي يصل من خلال الخبرات إلى تلك المقدرة على الحكم، والفصل بين ما هو نافع وما هو ضار في الحقيقة، فبوسع العقل وحده في بعض الأحيان أن يتخطّى حدود التجربة، فينفذ إلى جواهر الأشياء ويقف عليها كما هي موجودة في الحقيقة بصورة مستقلة عنا، فإن مهمة العقل الوصول بالمعرفة إلى الوحدة المطلقة النهائية(١).

لكن أليس العقل هو ميزة الإنسان! أليس جميع الأسوياء يمتلكون هذه القوة! إذن فما هو الفارق بين الناس في بلوغ هذه المعرفة، وفيما يختلف الكل، كل من وجهته؟

وإذا كان عند "هيغل" يقف العقل على الوحدة الداخلية العميقة للجوانب المتضادة، ويتيح بذلك إمكانية معرفة الموضوعات في عيانيتها وكليتها(٢). فما هي الموانع من بلوغ الهدف؟

لم تحن الإجابة عن هذا السؤال بعد، لكن نود أن نشير إلى أن الخطاب الإلهي في كل الأحوال، يتّجه نحو الجوهر الإنساني السليم، أو الأكثر سلامة، ذاك الذي يعي ويدرك ويمتلك خاصة سبر

---

١ ـ المعجم الفلسفي، م. س. ص٩٢.

٢ ـ نفس المصدر: ٩٢.

ومعرفة أغوار الأشياء، ويمكن أن نجمله هنا بمصطلح (النفس) الذي يرسل إليها الخطاب القرآني، ومجمل أنواع المخاطبات الإنسانية، أي تلك القوة العاقلة التي تتمتع بالفهم والفكر والمشاعر، وهذه القوة لا مجال لمعرفتها أو التعرف عليها عبر الأدوات التي تختبر بها القوانين والأنظمة، كالكيمياء والطاقة والتشريح وما إلى ذلك، لا لأنّها ليست حقيقة ملموسة، بل على العكس يمكن أن تكون هي الحقيقة الأشد نصاعة بين جملة أشياء هذا الكون، لقدرتها على التأمل والخلق وترتيب المقدمات التي توصل إلى نتائج.

يقول عالم الأحياء "أدلوف بورتمان": "ما من كمية من البحث على النسق الفيزيائي أو الكيميائي، يمكنها أن تقدم لنا صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية"(١).

ومن خلال ما تقدم تبين لنا، أن هذا الجوهر الإنساني لا يخضع في حركته الفكرية لأية سلطة، أو لا توجد هنالك من سلطة تمنعه من البحث الدائم، الذي لا ينفك محاولاً الإحاطة بكل تفاصيل الوجود، عاملاً على إخضاعها لمتطلباته، أو باحثاً عن فك رموزها.

هذا ما يؤكده عمل الإنسان المبكر على إنشاء علائق تقوم ما بينه وبين الموجودات الشاخصة أمامه، بل تحرك الإنسان أعمق من

---

١ ـ العلم من منظوره الجديد، روبرت اغروس، جورج ستانسيو، ت: كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٤، ص٤٢ ـ ٤٣.

ذلك وذهب نحو الماهيات وجرد الأشياء من الأطراف الزوائد التي تلحق بها ليصل إلى اللب، أو ليبحث عن الخالد، ولا يعبأ كثيراً بالآيل إلى الزوال.

والذي يدفع الإنسان نحو هذا المنهج، هو شغف أزلي يسوقه نحو معرفة بدايته ونهايته، ويجري أعماله على خلق ظروف ومناخات تلائم المراحل التي يقطعها ما بين هذه البداية التي يحياها، وتلك النهاية التي ينحصر ختام تجربته فوق التراب بها، بجميع ما يشوبها من الغموض، وما ينتظره فيها من المجهول.

وبمناسبة هذا المجهول، فإننا نعطف هنا على أن التعلق والحنين والبحث عن المجهول بالنسبة للنوع الإنساني، هو أمر له علاقة ذات حدين:

الحد الأول: هو الذي يخضع للتساؤلات عن المنشأ والولادة والبداية.

الحد الثاني: هو الذي تجري عليه جميع اختبارات عمره في طريق بلوغه النهاية التي حتمت عليه، وهو يعرفها لكنّه يغض الطرف عنها.

والوازع والهاتف الداخلي الذي يحفز الإنسان على المعرفة يرتبط بشكل وثيق بالحد الثاني، حد معرفة مجهول النهاية، وذلك لما يتعلق به في مسيرته الحياتية من آمال تجعله لا يرغب

بانقضائها، مع علمه يقيناً بهذا الانقضاء، ولهذا اوصى أمير المؤمنين(عليه السلام) برفض هذه الدنيا، قائلا: "وإن لم تحبوا تركها، والمبلية لأجسامكم، وإن كنتم تحبون تجديدها، فإنّما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلا فكأنهم قد قطعوه، وأموا علَماً فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها، وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه، وطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها"(١).

نتيجة

الواقع أن ثمة اتصال يربط ما بين هذه الحياة الخارجية، وبين حياة أخرى يسعى لا محالة لبلوغها، وهي حياة أزلية محكوم بها الإنسان، ومحتاج للتعرف عليها واكتشافها، لكنّه يعترف دائماً أنه بمفرده لا يتمكن ـ مع ما يمتلكه من شعور عميق ـ من الوصول إليها، وكذلك يندفع به هذا الشعور نحوها، غير أن هذا الشعور يتدخل في تحديد مدى صفائه وخلوصه من الشوائب.

لكن الفرد قد يتمكن من الوصول إلى المواءمة بين ما يتلقاه من العالم الخارجي، وبين ما يتدفق من أعماقه، وهو هنا عند هذه المرحلة من التمكن سوف يستطيع يقيناً أن يلتقط إشارات دقيقة

١ ـ انظر: نهج البلاغة: الخطبة ٩٨.

التأثير، تصل به إلى معرفة مرضية بالمعنى الحقيقي لوجوده والغاية من هذا الوجود، وبذات المنطقة من المعرفة هذه سوف ينجذب باتجاه ملاذه الذي يدرك بالفطرة المصفاة أنه هو القادر على حمايته من أي سقوط، مثلما يحميه من مغبة الغفلة عن هذا الذي بلغه من المعرفة، وهذا الانجذاب مسربل بعناية إلهية، وهي في هذه الهنيهة بالذات معنية بهدايته، وإنما تكون هذه الهداية في النتيجة هي انكشافه على إمامه الذي يحمي كليته في هذه الحياة.

هذا ما يمكن أن نسميه الوصول الفطري إلى معرفة الإمام!

وهنالك منحى آخر يمكن تناوله هنا، ونحن نؤسس للتعرف على الإمام في الماهية والمفهوم بمعناه الإنساني الكلي، أي فوق الفئوي أو القومي والعرقي، وسنجد بعدئذ بحول ا الموقع الذي يشغله علي بن أبي طالب(عليه السلام) من هذه الدنيا برمتها، والمنحى الآخر هو:

تلقي معرفة الإمام

بعد أن تجولنا في أرجاء المعرفة النابعة من الفطرة المتجسمة بالعقل من الجوهر، يمكن أن نقترح طريقة ثانية، وهي جزء متوازن في الشخصية وموازي لذاك الجزء المتمثل بالطريق الذي يستسلم من خلاله المرء إلى جملة التراكمات التي تشكلت مع تقادم الزمن عن طريق الوعي الجماعي أو الفردي بخبرات متلاحقة متتابعة، وقد

تبلغ قيمة هذه التراكمات الاعتبارية أن تصبح جملة من النظم والقوانين والمفاهيم، وربما العادات التي تصير في معظم الأحيان إلى المكان المقدس الذي يصعب على النفس تنقية أطرافها منها، لصعوبة اختراقها بعد وصولها إلى هذه المرتبة من القداسة.

لهذا نجد أن القرآن الكريم لا يلمح بإشارات عابرة إلى مثل هذه الظاهرة، وإنّما يتحدث عن معتقدات اختلقها الناس اختلاقاً ما أنزل ا بها من سلطان، ثم راحت الأجيال تتوارثها كابراً عن كابر، سواء كانت من ذلك الذي يتوافق مع أهوائهم أم تلك التي تخالفها.

وفي نظر الإسلام بملاحظة الموقف القرآني من هذا المشهد، فإنه يشكل أكبر العوائق التي تقطع الطريق على الصفاء الذي يقود نحو منازل رفيعة يطلبها، بل يرجوها الأنبياء للناس، ومثالاً لنا على ذلك: قوله تعالى (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)(١)، وهو على لسان أولئك الذين صنع لهم آباؤهم من خلال مواءماتهم مع متطلبات ورغائب تلازمهم في سير أو منحى معين، صنعوا لهم قيماً وأنظمة بلغت مراتب اعتقدوا أنها هي الدين الذي لا ينبغي الحيد عنه، أو الافتراق منه، فلم يمكنهم هذا الإدراك من تجاوزها أو صياغة تحوير آخر لها يساعدهم على السير باتجاه مناطق أخرى من الفكر، تخولهم الاستجابة لما هو أكثر موضوعية وعلمية منه.

---

١ ـ المائدة: ١٠٤.

ويجدر بي هنا أن أورد هذا المقتبس الذي يشير بوضوح إلى أن هذه الآية ومجمل الخطاب القرآني إلى بشر لم يستمعوا يقيناً إلى داعي الرحمة الإلهية، واستأثروا بتراث آبائهم وأجدادهم، دون عناء الفحص عن علم والتدقيق عن معرفة، يلفتون النظر إلى أنه ليس كل ما يكسبه المرء من تعاليم هي بالضرورة مقدسة، بخاصة تلك التي تصبح مع التقادم نظاماً، أو قانوناً، أو قيمة من القيم الاجتماعية.

والمقتبس من خطبة لأحد زعماء الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وهو يعبر بشدة ووضوح عن فقدان العدد الأوفر من الهنود الحمر، نتيجة لاعتقادهم بأشياء يصعب الثبات عليها، عندما تقتضي الضرورة الحفاظ على الإنسان، حتى وإن كانت تلك الأشياء مقدسة لا يجب المساس بها، نستمع هنا إلى كلمات زعيم "دواميش chief seattie" والتي قالها أمام ممثل الحكومة الأمريكية سنة ١٨٥٨.

"يخبرنا الزعيم الأبيض أن (الزعيم الكبير)(١) في واشنطن يهدينا تحيات الصداقة والمشاعر الطيبة، وذلك لطف منه، فنحن من جهتنا أدرى بأن حاجته إلى صداقتنا ليست ماسة، شعبه وافر العدد، وأشبه بالعشب الذي يكسو البراري، أما شعبي فقليل عديده، أشبه بشجيرات مبعثرة في برية تنتهبها العاصفة.

لن أسهب في الحديث عن اندثارنا قبل الآوان، ولن اندب،

---

١ ـ رئيس الولايات المتّحدة الأمريكية.

أخوتنا شاحبي الوجوه(١) بتعجيلهم في حدوثه، فالملامة تطاولنا جميعاً (أرجو من القارئ الكريم الانتباه هنا!) ربكم ليس ربنا، ربكم يؤثر قومه ويبغض قومي، إنّه يلف الوجه الشاحب بذراعيه الصلبتين الحاميتين، ويحنو عليه ويأخذه بيده كما يقود الوالد ولده الغر، لكنه نبذ أبناءه الحمر، إذا كانوا أبناءه حقاً، كذلك يلوح، أن ربنا (الروح الأكبر) قد نبذنا بدوره.

ربكم يشد في أزر قومه كل يوم، ولن يطول الأمد حتى تحفل بهم الأرض، قومنا ينحسرون مثل مد سريع النكوص، بلا إياب، ورب الرجل الأبيض غير قادر على محبة قومنا، ولابسط حمايته عليهم، أنّهم أشبه بأيتام لن يعثروا على معين لهم أينما ولوا وجوههم، فكيف لنا أن نتآخا والحال هذه؟

نحن جنسان مختلفان افترقت أُصولهما، وتخالفت أقدارهما... دينكم كتبته أصابع ربكم الحديدية على ألواح من حجر، خشية أن يغلبكم النسيان، هذه حكاية لا يفهمها الرجل الأحمر، ولا يتذكرها، ديننا هو أعراف أسلافنا، أحلام شيوخنا التي حباهم بها (الروح الأكبر) في سويعات مباركة من الليل، ورؤى زعمائنا المنقوشة جميعها على قلوب أبناء شعبنا... لكن ما لي أحزن على قدر قومي؟ قبيلة تتبع قبيلة، وأمة تقتفي أثر أمة، مثل أمواج البحر، إنّه نظام

---

١ ـ لقب الرجل الأبيض عند الهنود.

الكون ولا فائدة ترجى من الحسرة"(١).

وفي كلام آخر لزعيم آخر هو "الصقر الأسود" زعيم قبائل "سوك وفوكس" نجد الآتي:

"تطاير الرصاص من حولنا مثل طيور في الفضاء، وكان الأزيز يخترق آذاننا... خر المحاربون صرعى من حولي، وأدركت أن ساعة الشؤم آتية... شخصنا بأبصارنا إلى (الروح الأكبر) وقصدنا أبانا الكبير فتزودنا بالشجاعة... دعونا إلى مجلس كبير وأوقدنا ناراً عظيمة، نهضت أرواح أسلافنا فتحدثت إلينا وطالبتنا بالثأر لمظالمنا أو الفناء"(٢).

وفي أماكن متفرقة من النصوص، نلحظ أن المعتقدات التي لم يتمكن أصحابها من التخلص من بعض الأخطاء التي سادت فيها، قد قادت أصحابها إلى الهلاك، فطريقة القتال الهندية طريقة مقدسة ويصعب تبديلها، بحيث كان بإمكانه في البداية من شراء الرصاص، لكن بقي الرمح والخنجر أو السكين هو سلاحه، بينما الأبيض بحسب تعبيراتهم، يمنحه ربه الحق في اقتناء آلات حرب مهولة!

كذلك لا يحق له أن يحفر الأرض! لأنها أمه، بحسب ما يرد في

---

١ ـ من نصوص لهنود أمريكا الشمالية، ت: صبحي الحديدي، الكرمل ع٤٥، ١٩٩٢، ص٨٣ ـ ٨٤.

٢ ـ م. ن. ص. ٨٥ ـ ٨٦.

النصوص، يقول "ووفوكا": تريدونني أن أفلح الأرض، هل أمتشق خنجري وأفرق صدر أمي!! فإذا مت فهل ستضمني إلى صدرها كي أستريح، تريدونني أن أحفر بحثاً عن الحجارة، هل أحفر تحت جلدها بحثاً عن عظامها؟! فإذا مت فهل أستطيع دخول جسدها كي أولد من جديد، تريدونني أن أحصد العشب وأصنع القش وأبيعه لأصبح ثرياً مثل الرجل الأبيض، فهل أجرؤ إلى قص شعر أمي... الأموات سيبعثون من جديد... ينبغي أن ننتظر هنا في بيوت آبائنا، استعداداً للقائهم من صدر أمنا"(١).

قمنا بنقل بعض هذه الأفكار والمقبوسات بغية إيضاح أمر في غاية الأهمية، وهو أن القصائد والنظم وبعض العادات الاجتماعية التي إن دخلت مقام التقديس، فإن صعوبة محاكمتها لا تكمن في المساس بهذا المقدس وحسب، لكن في أن معتنقيها قد يصلوا إلى حيز الفناء دفاعاً عنها، وهذا ما لا يريده القرآن في الواقع.

ومن هنا نجد أن القول إنّها ما هي (إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم)(٢)، يدعوا إلى الانتباه أن قدسيتها لم تأت من ا ، وإنما أتت من تراكم عادات، فهي بذلك ضارة، والنفع كل النفع بالالتفات إلى داعي ا .

١ـ نصوص الهنود، م. س. ص٨٩ ـ ٩٠.

٢ـ النجم: ٢٣.

في عدد من المواضع التي تقرأ من هذه النصوص، يشعر القارئ بالأسى نتيجة الظلم الذي يقع على الهندي الأحمر، ويشعر بمدى احتقار الذين يغزون بلاده له، ولكن الأمر الأشد إيلاماً، هو أنهم من الزعيم وحتى أصغر المحاربين، يخسرون المعارك بأشكال متتالية، ويفنون بأشكال متتالية، كما عبر أحدهم مثل موج البحر، لكنهم يلتصقون بعدم التخلي عن ذاك الذي شكل مقدساً، ولا نقصد أي معنى هنا مخالف لروح الأديان، إنما لا نعتقد أن ا   سبحانه يتخلّى عن مخلوقاته، مثلما قرأنا في ورقة زعيم "دواميش"، وإنما الذي يجري هو التقيد بنظام الحرب وفق المنهج الذي رسمه الشيوخ القدماء، وهو بلغ كذلك رتبة التقديس، فاستغل الأبيض بقاء هذا الإيمان وراح يفني القبائل.

إذاً لقد شكلت هذه الظواهر عائقاً كبير في طريق الصفاء الذي يقود نحو منازل رفيعة، يتخلصون مع الالتفات إليها مما هو ضار بالضرورة وينجون ـ أي جميع الناس ـ وليس فقط هذا القوم أو ذاك ـ من الذي أشار إليه القرآن الكريم في مقام توارث العقائد بدون هدى حين قوله: (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)(١)، بل هي شاملة للعنصر الإنساني جميعاً.

وإذا دلّ تمسك المجتمع بما لا تحمد عواقبه، فإنّما يدل على

---

١ ـ المائدة: ١٠٤.

صلابة الجدار الذي شيد فيما بين الثبات على نمط أخذ شكل التقديس، وبات معه التغيير أمر في غاية التعقيد والصعوبة، وما بين تطلع الذات وطموحها الذي تصعب الإحاطة النهائية به، ويصعب حصره.

وهذا الجدار من الصلابة بحيث يستمر مع الأجيال تتوارثه وتقدسه، وكلما أوغل في القدم كلما ازدادت قسوته وقوته، وازدادت صعوبة اختراقه، ويقول القرآن الكريم على لسان أنصار هذا الجدار: (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)(١).

ونعتقد بصدد عدم الخروج عما يورثه الآباء للأبناء، وبالخصوص في مسألة العقائد والقيم التي تعتنقها الفئات والمجتمعات أحياناً، أنّها تبلغ مع التقادم من الرسوخ ما يجعل صاحبها غاضاً بصره عن أي مناقشة تؤثر في بنيتها، خصوصاً إذا كان ثمة سؤال يحفر في أعماقها، ويصل مع هذا الغض إلى الانغلاق أمام أية مكاشفة محتملة، بل ويشكل حاجزاً دفاعياً غير قابل للتسامح أو الأخذ والرد، لماذا..؟ لأن هذا الكائن البشري ما عاد يصغي إلى ندائه الداخلي، وبالتالي فقد أراح نفسه من مشقة البحث وعناء التطلع إلى ما يمكن أن ينشئ جسراً أكثر حيوية وواقعية، بين واقعه وبين ما تصبوا إليه

---

١ ـ الزخرف: ٢٣.

نفسه بفطرتها.

وقد انهمك في الأشياء التي توفر له مساحة العيش غير القلق بحسب ما يظن، بيد أن ا سبحانه لا يتجاوز عن إنسان غير آبه بما سيؤول إليه حاله نتيجة عدم بلوغه هذا الاطمئنان عن طريق إعمال جميع ملكاته الواعية، وعدم الاكتفاء بما ورثه عن آبائه أو غيرهم، مهما كان حظ هذا الميراث من الصحة كبيراً، لأن مصيره لا يرتهن بمن سلف، إنما هو مضطر لأن يذهب في تأمله، باحثاً عن حقيقة انغمست في أعماقه، مستجيباً لندائها دائم التنبيه، وانه بغير هذه الاستجابة وبسوى هذا الطريق سوف ينطبق عليه فيما نرى قوله تعالى: (لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين)(١).

هذا الجانب الذي ركب جراء جملة العناصر التي من أهمها: الرغبة في الإجابة على الأسئلة القلبية، والتي غالباً ما تجد لها نصيراً في الحياة العامة التي يعيشها الناس، وبالخصوص عندما يدرك الموت أحد الأشخاص، فيقف الآخرون وقد أطبق عليهم العجز من تفسير هذا المشهد!، ومنها الاستئثار والتمسك بالموروث كأحد أهم الإجابات على هذه الأسئلة، بالطبع إن هذه المواصفات، والموروثات تجد لها سدنة يحمونها من الزوال ويعملون على ترسيخها في عقول الأجيال.

---

١ ـ الأنبياء: ٥٤.

وقد التفت إلى هذه الظاهرة العلماء، وعلماء الاجتماع بالخصوص، ويمكن أن ننظر إلى عالم اجتماع عربي بكّر في تشخيص مثل هذا الأمر.

يقول الرحالة وعالم الاجتماع "ابن بطوطة"(١): "إن المجتمع مسرح لطائفتين من الظواهر:

الطائفة الأولى: هي الظواهر الطبيعية، والمجتمع بصدد هذه الظواهر لا يخلقها ولا ينشئها، ولكن يجدها مستقلة بطبيعتها.

والطائفة الثانية: هي الظواهر الاجتماعية، والمجتمع بصدد هذه الظواهر يخلقها خلقاً وينشئها انشاءاً، وهي لا توجد منفصلة، بل تكون متماسكة الأجزاء، ووحدة حية تتفاعل عناصرها، وتشتبك آثارها، فينتج عن ذلك ما نسميه بالدوافع والتيارات الاجتماعية"(٢).

وإذا دار البحث حول الإنسان والمجتمع، فذلك لقراءة البناء النفسي الذي يربط المرء بالعالم، ويربطه بذاته أيضاً، هذه الذات التي تشغل مساحة وجوده وهي التي تتمكن من معرفة الخيط الذي

١ـ ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم الطنجي (١٣٠٢ ـ ١٣٧٧) من الذين بكّروا في دراسات المجتمع، وله أسفار كثيرة، دون بعد أسفار دامت ثلاثين عاماً كتاباً ضمنه خلاصتها أسماه (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

٢ـ معجم علم الاجتماع، دينكن ميتشل د: إحسان الحسن ط٢، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٨٦ ص١١٦.

يوصلها بغاياتها، مثلما نعول عليها في فك رمز هذا البحث الداخلي السائر لا محالة بدافع الفطرة نحو شأن كوني تعرفه الفطرة وتهتدي إليه، وهذا ما يشكل هدفاً حقيقياً لا دخل للأنظمة الاجتماعية بها إلاّ من قبيل فرض بعض القوانين والقيم التي تغلفها، الأمر الذي يجعله خاضعاً في الغالب ـ ما لم يتخاص بكفاءته ـ لهذه المفاهيم التي تعيق قدرته على بلوغ صفاءه، لكن هذا بدوره يحتاج من الفرد بذل مجهود مضاعف عندما يذهب نحو فطرته الأولى، المقام الرفيع الذي يخوله الانكشاف إلى حقيقة الإمام.

إن هذا جانب مركّب في طبائع الناس، يجعلنا نعتقد أنه من مكامن الحجاب الحقيقي الذي يحول دون بلوغ درجة من الشفافية يلامس معها الكنه، ويتعرف عليه وهو هنا عند هذه المنطقة ينجذب نحو ملاذه، ويلجأ إلى إمامه عياناً.

الخلاصة

نخلص من هذا البحث إلى النتائج التالية:

ـ إن النفس الإنسانية بما هي ذات متسعة الأبعاد عميقة المعنى، يدور حولها محور هو الأهم في الرسالات السماوية، وقد بنيت مختلف التأملات والأفكار على أسس تبحث في معرفتها، ومن هذه المعرفة ينطلق الإنسان إلى معارف أخرى غيرها، وإن عدم معرفتها

يلزم منه بالضرورة الجهل في سواها، يقول: "صدر الدين الشيرازي": "إن النفس مجمع الموجودات، فمن عرفها، فقد عرف الموجودات كلها"(١).

فمنها إذن يتم الانطلاق إلى معرفة العالم الذي يقودها نحو العالم الروحاني الذي فيه تجد ضالتها، وعلى أعتابه تنكشف لها حقائق ميولاتها الأزلية منها والآنية، وهناك يعرف تعلقها.

وعند هذه النقطة سوف لن يحتاج المرء إلى كثير مشقة، حتى يتعرف على ما هو ومن هو الإمام، منبثقاً من هذه المعارف، من داخلها، حتى يتمكن بعد ذلك من المصداق الخارجي للإمام، والذي يتجسد عياناً في أشخاص قد اصطفاهم ا تعالى، لما في ذواتهم من ملكات اهلتهم لهذا الاصطفاء، ويكون الإمام في هذه الحالة، هو ملاذ النفس ومركز طمأنينتها ملتحماً مع كينونتها، معبراً عن حاجة الفطرة السليمة إليه، متجسداً ومتحققاً عياناً بمصداق إنساني موجود على الأرض.

فهو كامل، لأن الإنسان الذي بلغت نفسه هذا الصفاء، أحس بتعلقها بالجلال والجمال اللذين لا يخامرهما النقص.

ولما كانت الغاية الواقعية هي التعلق بالكامل، أبت النفس أن

١ـ انظر: كتاب أسرار الآيات: صدر الدين الشيرازي، دار الصفوة بيروت ط١٩٩٣، ص١٣٦.

تميل نحو تعلق بالنواقص، وباعتبار إن معرفتها من ضرورات المعارف الحقّة التي تقود إلى المعرفة الكلية، كان على المرء حتى يبلغ مكمن اللوذ بالإمام أن يكشف عنها حجبها، ويعينها على الخلاص من العوالق والتوجه نحو النواقص، فهي حينئذ سوف تنجذب تلقائياً إلى إمامها الذي لا يدخلها في باطل، ولا يخرجها من حق.

ومن أجل تعيين هذه النتيجة نقول:

إن الإمام بهذا اللحاظ، سوف يكون الملجأ الإنساني، ويكون ملاذ البشرية جمعاء، لا ينحصر في فئة ولا في قوم من الناس، ولا يقتصر وجوده على مكان، ولا ينبغي أن تخلو الأرض منه ليوم واحد لا في القديم ولا في الحاضر ولا في المستقبل، وبالتالي فهو مركز الهداية إلى ا سبحانه، وبمثل هذا التعيين تظهر لنا دلالة قوله تعالى: (من يهد ا فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)(١).

بعد هذه النتائج التي بلغنا إليها، نلتفت إلى أن الإمام الذي اتضحت بالنسبة لنا ماهيته هو بالضرورة مصطفى من قبل ا تعالى، مجعولاً في الناس أبداً، وهو غير القادة والحكام، وإن كانت من ضمن ملكاته هذه الوظائف العادية، وليس هو بالحاكم العسكري،

---

١ ـ الكهف: ١٧.

ولا رئيس الدولة، وليس صاحب شأن دنيوي من هذا النوع أو ذاك، لكن جميع هذه الشؤون من ضمن ما يمتلكه، لتمتّعه بالكمال في كل شأن، ولعدم عجزه أو نكوصه عن القيام بكامل الأدوار البشرية، ونذكر هنا أن السيد المسيح(عليه السلام) حين قال: "مملكتي ليست من هذا العالم"(١) كان يقصد أنه مكلف بالإمامة من ا عزوجلّ.

ونشير هنا إلى أن معرفته عياناً تنطلق من معرفة النفس التي تفيد معرفة الحقائق المتعينة في الأحوال، لذلك جعل رسول ا (صلى ا عليه وآله)معرفة ا مرتبطة بمعرفة النفس، فإذا كانت معرفة ا أشد وأكثر أنواع المعارف احتياجاً للصفاء وعدم الاختلاط والتداخل بينها وبين هذه المعرفة، أي عدم قطع طرقاتها بما يشوب مسيرتها، فإن معرفة الإمام من نفس الجانب ومن ذات المتجه الذي يسار به نحو معرفة ا .

يقول النبي(صلى ا عليه وآله) "من عرف نفسه، فقد عرف ربه"(٢)، وسأل رجل النبي(صلى ا عليه وآله) قال: يا رسول ا : كيف الطريق إلى الحق، فقال: "معرفة النفس"(٣) وفي كلام لعلي(عليه السلام): "معرفة النفس أنفع

١ـ أنظر انجيل متّى: ٧/١٠، من التفسير التطبيقي للكتاب المقدس.

٢ـ عوالي اللآلي للأحسائي: ١٠٢/٤، بحار الأنوار للمجلسي: ٣٢/٢.

٣ـ أنظر عوالي اللآلي لابن أبي جمهور: ٢٤٦/١، مستدرك الوسائل للنوري: ١٣٨/١١ (١٢٦٤٣).

المعارف"(١)، وللباقر(عليه السلام): "لا معرفة كمعرفتك بنفسك"(٢).

ونجمل جميع هذه الأقوال تحت قوله(عليه السلام): "ومن عرف نفسه، فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم"(٣)، ولن نحتاج إلى توضيح بعد هذا، فإن الغاية من وراء كل معرفة ومن وراء كل علم، هي شعور المرء بأنّه كامل من جميع جوانب الكمال ولا نزيد على ذلك، ولابد أن الكمال غاية لا مزيد وراءها، وإن بلوغه بالمعرفة لا يتحقق سوى بالإمام، وإذا عطفنا كلامنا هنا على خطبة الإمام علي(عليه السلام) التي يأتي منها: "أول الدين معرفته ـ أي ا ـ "(٤) سوف نجد تلازماً ضرورياً، بين: "من عرف نفسه فقد عرف ربه" وبين "أول الدين معرفة ا ".

إن هذا التلازم يلتقي بالدقة عند منطقة الفطرة، لأنّها المكان الذي يجتمع فيه العلم الأول الذي تنزع نحوه الحاجات والميول، فالمراد أن المعرفة كامنة في جوهر النفس، وأن جميع الأعمال الجارية من أجل أصلاحها وهدايتها، هي سائرة نحو هذا المتجه، وإن الذي ينبغي أن تبذل من أجله كلّ جهود المعرفة، هو أين تجد ملاذها، وتطمئن الاطمئنان كله، وإذا بلغت بنا النتائج هذا المكان، وقيل أين هو؟ أو في أي جهة أو طريق ينبغي أن تتجه بنا الآليات المعرفية

---

١ ـ أنظر غرر الحكم للآمدي: ٩٨٦٥.

٢ ـ أنظر تحف العقول لابن شعبة: ٢٨٦، بحار الأنوار للمجلسي: ١٦٥/٧٥.

٣ ـ غرر الحكم للآمدي: ٨٩٤٩.

٤ ـ انظر: نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

حتى نوجهها نحو الأمام؟ وما هو المصداق على جميع هذه الأُطروحة؟ فإن هذا سيحيلنا إلى تناول الإجابة عنه في البحوث القادمة.

الفصل الثاني: بين الإمامة والقيادة

بعد أن اتضح لنا أن الإمام هدف تسعى نحوه الذات، ينبغي لنا أن نفرق بين الأمرين التاليين، لأن عدم الالتفات إلى الفوارق بينهما يعيق حركة الفكرة، أو يحرفها عن مسارها الذي تسعى نحوه.

الأمر الأول:

أن لا ينفصل مفهوم الإمامة عن شمولية الإمام وأن لا يتجزأ هذا المفهوم، وسنوضح ذلك فيما بعد.

الأمر الثاني:

التيقن من أن الإمام حاجة تسعى الذات البشرية نحوها بالفطرة، لتلمس هديها بجميع أبعاده، وليس يصح فيها العكس فيما نرى.

وبعد أن يتم هذا التفريق، وتتم معرفة هذين الأمرين، يمكننا أن نستوضح أبعاد كل منهما بحسب مقتضيات هذا المبحث.

أما عن الأمر الأول الذي يتناول ربط مفهوم الإمامة بمعناه الشمولي فإن أقرب معادل نجده له هو (المثال) في المصطلح الفلسفي، والمثال يساوي الكمال والغاية الأسمى التي تحدد نزوع وسلوك

ونشاط الفرد والجماعة(١)، إن هذا المثال يتموضع داخل كل رغبات الإنسانية مهما جفت وخفت بريق صفائها، وهو يلهم الناس ويعبئهم ويرسم غاية كمالهم الفردي والاجتماعي، وهو بهذا اللحاظ المخلوق الكامل المتميز عن سائر مخلوقات ا تعالى، وتميزه هنا ناتج عن اصطفاء إلهي تراعى فيه حاجة البشرية إليه، وهي كما سلف حاجة أصيلة وغير قابلة للتبدل أو التغير مع تواتر الأجيال، وهي في عمق الوجدان، وهي عين الأمر المبحوث عن مصداق في الخارج له، ولا يقبل أو يصح أن تخلو منه الحياة، لأنه لا يوجد إنسان لا يريد تحديد الاتجاه أو الموضوع الذي ينبغي له أن يتعلق به.

وسائل معرفة الإمام

الهداية

أبدأ من معرفة الإمام ـ الذي استحوذ على هذا المعنى ـ وهو أمر بحاجة إلى دأب خاص، وإلى إخلاص منقطع وراء هذا الدأب، ولهما أن يدومان باستمرار، أي أن يبقى القلب ملتفت دائم البحث، حثيث الخطا حتى يتحقق له ذلك، وفي حال الوصول إلى هذا الدأب، ومع التيقظ الحقيقي والانكشاف على الرجاء، والشعور ببلوغ لحظة

---

١ ـ معجم المصطلح الفلسفي، توفيق سلوم: ٤٢٧.

الالتقاء بالجاذب المحبب لديها، يبلغ المرء مبلغاً يتمكن معه من الهداية.

والهداية بهذا المعنى

هي تفويت فرصة صرف جهد النفس بغير ما طائل، وعدم السير وراء أمور تبدو لها وكأنها غاية السعادة، وكمال الطمأنينة، وعند بلوغها تنكشف عن مخادعتها وعدم صدقها وسرابيتها، فتصاب بخسران جميع الجهد والزمن الذي صرفته من أجلها، وهذه الخيبة لها ذكر في مواطن عدة من كتاب ا تعالى، منها قوله سبحانه: (هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً)(١)، في تصريح واضح يلفت انتباه الناس، إلى أن فرص العمر الممنوحة قد لا تكون كبيرة.

لذلك لا تنبغي المغامرة بها في عدم البحث عن الغاية المرجوة منها، أو الاستجابة والامتثال لدافع التعلق بالمثال ـ أي الإمام ـ وهذا الدافع رافق البشر منذ بدايات وعي الإنسان، وهو الحافز الأشد توثباً في ملاك الدخول إلى عالم الهداية، الذي يصدقه قوله تعالى: (من يهد ا فهو المهتدي)(٢)، فالهداية بجميع أشكالها منوطة ببذل

---

١ ـ الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

٢ ـ الأعراف: ١٧٨.

الجهد للاستحواذ عليها، وعدم بذله موجب للضلالة، وفيه قوله تعالى: (ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون)(١) فالربط القرآني بين الهداية وبين الخسران ربط يدفع إلى التأمل!

فمن المعروف أن ا سبحانه عادل، وليس من العدل أن يمنح الهداية بأمر منه لهذا الإنسان ويحجبها عن ذاك، وبالتالي فإن البحث والدأب وراء سمو الغاية، والجد من ورائه هو مسلك موصل لا محالة إلى الهداية، التي ترتبط بسبب موضوعي أوجده ا سبحانه و جعله في الإمام،ونجد إشارات القرآن الكريم إلى ذلك في غير مكان.

نأخذ مثلاً قوله تعالى: (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)(٢)، فمن بعض خلقه خلق سبحانه الهداة، وهذا البعض متزامن مع خلق سائر إلى منتهاه، وهم بينون واضحون غير خافين خفاء يمنع الباحث من الوصول إليهم، وفوق ذلك فهم يباشرون الناس دعوتهم إلى الحق، وما هو هذا الحق الذي تهدي إليه هذه الأمة؟ ومن هي هذه الأمة؟

دعونا أولاً ننظر في جنبات الحق، فالحق هو ضد الباطل وكل ما هو باطل غير قادر على الاقتراب من مقام الحق، ومن الباطل

---

١ ـ الأعراف: ١٧٨.

٢ ـ الأعراف: ١٨١.

مخالفة الفطرة السليمة التي تحفز في الإنسان تلك المقدرة على السير نحو الكمال.

يقول "صدر الدين الشيرازي": "جعل ا لكل شي كمالاً ينساق إليه بالطبع"(١) وبالنسبة لبني البشر، فإن الحق غاية تنشد لذاتها أولا، ولإكتمال بلوغ الغرض ببلوغها، وأما الذي يسوق إليها فهو الإمام، وإن الطبع هو فطرة وبديهي أن الغاية إزاحة الأذى وجلب المنفعة "فما من أحد إلا وهو نازع نحو سعادة يطلبها بجهده"(٢)، لكن ليس كل طالب للسعادة بمدركها، مع أنّها من حق الجميع، وهي هدف الجميع، لكن التقصير عنها أو بلوغها أمر مرهون بالأمة التي خلقها ا هادية بالحق، أي مرهون بمعرفتها الحق.

الأمـة الهـداة

لقد استخدم القرآن الكريم لفظ الأمة في مواطن عديدة، واللافت للتأمل أنّه أطلقها على تجمعات بشرية وغير بشرية، فقال في غير البشرية: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم)(٣) وهي هنا في معنى الجماعات التي تجمعها خصال

---

١ ـ أسرار الآيات: م. ص. ١٧٥.

٢ ـ المصدر نفسه: ١٥٧.

٣ ـ الأنعام: ٣٨.

مشتركة في الجنس والنوع، لكن عند استخدامه لها في معرض حديثه عن الجنس البشري، فإنه يطلقها شاسعة، حتى يكاد الباحث أن يلتمس منها عدة مفاهيم، وتخوله هذه المفاهيم أن يجري مقاربات ترشده إلى أحكام دائرة الفكرة حول كل استخدام على حدة.

هذا يعني عدم إمكانية استعمال كلمة (أمة) ضمن مفهوم واحد موحد تبنى عليه نظرية أحادية الطرح، إنّما يتعدى ذلك ليتسع أمام الباحث المجال، في تقريب يوازن بين الأمة الهداة، والأمة التي يعني بها الخطاب القرآني، الجماعة من الناس وإذا استعرضنا عدد من الآيات الواردة في القرآن الكريم، والتي تستعمل كلمة أمة لوجدنا فيها ما يدعم هذا الرأي.

ونقسم هنا هذا الأمر إلى ثلاث أقسام:

أ - عند استعراض الآيات الكريمة التي تستخدم كلمة أمة، في معرض إطلاقها على (فئة) من الناس، نجد قوله تعالى: (ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات ا)(١)، أو قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف)(٢) وهنا مثلاً قوله تعالى: (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)(٣).

---

١ ـ آل عمران: ١١٣.

٢ ـ آل عمران: ١٠٤.

٣ ـ البقرة: ١٢٨.

هذا ليس للحصر، لكن الملاحظ من استخدام كلمة (أمة) هنا أنها أتت للتدليل على (فئة)، ولهذه الفئة خواص بالإمكان التعرف عليها، فهي تقترب تقريباً بمجموعها من مفهوم (الفئة المؤمنة) ففي الآية الأُولى: (أمة قائمة يتلون آيات ا) في التفريق بين الانتباه الذي قام عليه الإيمان، وبين الغفلة التي يحياها من لم يبلغه، أي الإيمان منهم ليسوا سواء و(قائمة) هنا بمعنى مستمرة، أي لا تنقطع.

وفي الشاهد الثاني، نجد الخطاب يتجه نحو قيام فئة، أو الطلب لقيام فئة بالدعوة إلى الخير، أي بإيقاظ الغافل وتوجيه جنانه نحو (المثال)، كواجب من واجبات الهداة، إن لم يكن جلّ واجبهم الذي ينبعث صادراً عن ذواتهم من غير انكفاء، (أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف).

وفي الشاهد الثالث: نلاحظ طلب إبقاء النعمة على من بلغت به مبلغاً بات يخاف على نفسه أن يمتحن بها، بل وهو راغب في استمرارها في ذريته، حيث يتضح ذلك الشعور الإنساني العميق، شعور التعلق با تعالى والاستسلام له، واستمرار هذا اليقين في الذرية التي تليه.

في هذه الشواهد الثلاثة التي استخدم القرآن الكريم فيها مصطلح الأمة نقف على شراكة فيما بينها، وهي شراكة تفيد أن استخدامها للتعريف بفئة مؤمنة، إضافة إلى شواهد أخرى لا يتسع المجال

لحشدها هنا.

ب ـ عندما يطلق القرآن هذا المصطلح على الجماعات بصفة عامة، فإننا نلاحظ أنّه يطلقه على أكثر من مفهوم، وفي الغالب يستعمله للتدليل على أن الأكثرية ليست لينة الرأي، بمعنى أن ُأمماً تخلو وتزول وهي ليست على الهداية، بحيث يمكننا أن نستنبط من خلال جملة من الآيات الكريمات فهماً يدلّ على أن الهداة دائماً قلة، بل يمكن استدراج هذا لفهم وتضييقه لجعله منحصراً في نماذج معدودة وصولا به إلى أفراد بعينهم!

فعند استخدام مصطلح أمة استخداماً واسعاً، فإن ذلك يقود إلى فهم الكثرة التي لا تخلو من غوغاء، أي التي لا تسترشد لشعورها بالقوة جراء هذه الكثرة، نرى ذلك مثالاً في قوله تعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء)(١)، أو ما جاء في قوله تعالى: (تا لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم)(٢)، وما ورد أيضاً في سورة الأحقاف في قوله تعالى: (أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم)(٣)، والشواهد أيضاً في هذا الجانب أوسع

---

١ ـ الأنعام: ٤٢.

٢ ـ النحل: ٦٣.

٣ ـ الاحقاف: ١٨ ٤ ـ النحل: ١٢٠.

من الإتيان بها جميعاً.

والذي نرغب في قوله هنا، هو أن استخدام مصطلح (أمة) في القرآن الكريم، يتراوح ما بين (الفئة) و(الجماعة) و(الأفواج) ويمكن تأطير كل تسمية من هذه الاسماء بعدة آيات تدلّ عليها، وقد أجرينا نموذجاً على ذلك.

ج ـ وهنالك احتمال آخر أفصحت عنه آيات كريمات أيضاً، وهو إطلاق هذا المصطلح على أفراد بعينهم، مثل قوله تعالى: (إن إبراهيم كان أمة قانتاً حنيفاً)(١) وقد استخدمها المفسرون هنا ـ أي أمة ـ بمعنى القدوة والمعلم، وهي صفة من صفات إبراهيم، وليست هي الجامعة لصفاته، بل أن جامع صفاته هي في كونه (المثال) والمثال أمة، من الجذر اللغوي أم الشي أصله، ومن الآية الكريمة التي ركزت على إبراهيم(عليه السلام) كمثال في قوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً)(٢).

إن استخدام مصطلح (أمة) فيما يخص إبراهيم هنا في الآية الأولى، يقبل أن يستند على مصطلح (إمام) الذي أوردناه في الآية الثانية، وهما يشتركان في جذر لغوي يفيد الأصل في الشي أو في الأمر، وفي كلتا الآيتين ما يشير إلى بلوغه رتبة عالية هي مقام

---

١ ـ النحل: ١٢٠.

٢ ـ البقرة: ١٢٤.

الرفعة الذي منحه ا تعالى إياه، وهو ما أطلقنا عليه إجرائياً (المثال) أو الملاذ.

وتلخّص الآية الكريمة حقيقة إبراهيم(عليه السلام)، إذ جعل من قبل ربه مركزاً لهداية الناس وهذا المركز هيهات أن يزول، إذ زواله يستوجب زوال إمامة الناس، والواضح من كثافة الجملة التي أطلقها القرآن الكريم أنها سرمدية، بمعنى أنها ليست لفئة دون أخرى فهو للناس وليس لأمة خلت.

لكن إبراهيم الإنسان البشري مات، فإلى أين تؤول هذه الإمامة، وهذه المركزية؟

إن هذا السؤال الكبير سوف يقودنا إلى متابعة مفهوم الأمة الهداة، وفق المنهج الذي سلكناه في التعرف على الأدلة من خلال نصوص القرآن الكريم والعودة إلى كلمة الأمة، واستنطاقها، في محاولة لرسم معالم نظرية يشترك في وضع فرضياتها ـ إضافة إلى الكتاب الكريم ـ الأحاديث والمرويات والمصطلحات التي تستخدم في هذا الجانب من البحث.

المثال عبر الزمان ـ الإمام ـ

نود أولاً أن نشير إلى أن علماء النفس وعلماء الاجتماع متفقون على أن الإنسان يمتلك في أعماقه ما يمكن أن يطلق عليه (غريزة

التدين)، أضف إلى أن علم الآثار المهتم بالحضارات الإنسانية الموغلة في القدم والعائدة إلى بدايات نشوء الإنسان، أفصح ـ بالاستناد إلى ما تركت هذه الحضارات من دلائل آثارية ـ عن عدم خلو ذهنه من إيمان أو معتقد روحي يرمز إليه بشكل من أشكال الرموز(١).

ولم تخل حقبة زمنية ترك فيها الإنسان أثراً يدلّ على قيامه على أرض وثباته عليها من إشارات إلى تعلقه بمثال، تميل نحوه فطرته، وتصبو إليه أفكاره، وهو حتى الآن كذلك، ويمكن أن نأخذ قطعة آثارية تجمع ما بين الألف الرابع قبل الميلاد ـ أي قبل نحو من ستة آلاف عام ـ وبين الألف الثاني منه، تجمع بين المرحلة السومرية في معتقداتها والمرحلة البابلية والآشورية، وهي قطعة من (ملحمة جلجامش) الشهيرة، كي نصور فيها كيف أن الإنسان ينظر نحو (المثال)، وهو في غاية الرجاء والإعجاب وهو يعبر من خلال

---

١ ـ انظر للتوسع بصدد هذه مسألة استقرار الإيمان في عقائد الإنسان من خلال دراسات حضارية متنوعة منها على سبيل المثال: د. جواد علي، المفصل من تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت دار العلم ١٩٦٩، ميديكو اللآلي من النصوص الكنعانية، بيروت ١٩٨٠، ول ديورانت، قصة الحضارة، الجامعة العربية ١٩٤٩، الأب جرجس داوود، أديان العرب قبل الإسلام، فيليب حتى مطول تاريخ العرب، الكشاف ١٩٥٢، حتي فيليب، خمس آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، عفيف بهنسي، وثائق إيبلا، دمشق ١٩٨٤، اولوف ارمان، ديانة مصر القديمة، ط البابي الحلبي، وهناك قائمة كبيرة من كتب الأديان والحضارات القديمة.

كتاباته عن تطّلعه إلى كماله، فإن لم يتمكن هو بنفسه من ذلك فإنه سوف يسوق هذه الرغبة نحو رمز يلاحظ فيه صفة أو عدة صفات، هي في الواقع تعبيرات عن نواقص يحلم أن يستكملها، لكن ربما لم يعثر على هاد واقعي له، فهو يراه في أنموذج آخر ما لم يعثر عليه حقيقةً، وإن كان هذا من علامات الضلال لكننا سنورد هذه القطعة هنا، كتأكيد على أن (المثال) ضرورة، بل حتمية إنسانية لا يمكن إنكارها.

تقول هذه القطعة في معرض وصفها للبطل النموذج، كمعرف عن التطلع الإنساني في بحثه عن (مثال)، وفي كيفية فهمه منذ أقدم الأزمنة لمن يجد فيه ملاذه:

هو الذي رأى كل شيء

فغنّي بذكره يا بلادي وهو الذي عرف جميع الأشياء وأفاد من عبرها وهو الحكيم العارف بكل شي لقد أبصر الأسرار، وكشف عن الخفايا المكتومة، وجاء بأنباء ما قبل الطوفان(١).

---

١ ـ د. فاضل عبدالواحد علي، من الواح سومر إلى التوراة، ط دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٩، ص١٣٠.

هذا المقطع من الملحمة البابلية، يرجع بطلها جلجامش إلى ٢٦٥٠ ق. م. وهي تحمل بين أوراقها أفكاراً سومرية وأخرى أكثر قدماً، تعبر بمجموعها عن تعلق الإنسان بمن هو كامل، بالذي يتصف بصفات لا تملكها إلاّ آلهة بحسب مفاهيمهم، منها المعرفة الشمولية (رأى كل شيء)، أي عدم غياب شيء مهما صغر أو كبر عن ملكاته، عن بصيرته، وهو الذي (عرف جميع الأشياء) لأنه حكيم عارف مبصر لا تخفى عليه حتى الأسرار وما يكتم عن الناس، وهذا يذكّرنا بخطبة للإمام علي(عليه السلام) وهو يعظ الغافلين ويصور لهم حالهم في غفلتهم، ويشير إلى أنّه يعلم ويعرف خفاياهم، وأكثر من ذلك يقول(عليه السلام): "وا لو شئت أن اخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت"(١).

ونحن هنا لا نجري موازنة بين النص البابلي وبين خطبة الإمام علي(عليه السلام)، وإنّما نريد أن نشير إلى أن (المثال) بالنسبة للبشر العاديين هو المخاطب ـ بفتح الطاء ـ، وإنّما الإمام (المثال) مع تحققه وعيانيته فإنّه هو المخاطب ـ بكسر الطاء ـ وهذا التشابه بين النصين، واحد يكتب عن الرمز الذي يرجو فيه الإنسان العادي كماله، والآخر ينطق به الإنسان الكامل ذاته.

ـ فعند (جلجامش) يقول الراوي عن رمزه: "هو الحكيم العارف

---

١ ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ١٧٥.

بكل شيء"، "لقد أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة".

ـ وعند الإمام علي(عليه السلام): "وا لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت".

هذا التشابه، ليس تشابهاً صدفياً، بل أن هناك علاقة ناجزة في حقيقة الأمر، بين تعبير أطلقته نفس تعبر عن احتياجاتها، وترسم الصورة التي تعتبرها مكمن الغاية بالنسبة لإمامها.

ـ ويجب أن لا ننسى أنّها صدرت على شكل عمل أدبي راق، والذين يهتمون بالأدب يعرفون كم هو عميق الغور، ذاك الشعور الذي ينطلق من الوجدان كي يعبر عما يختلج داخل النفس.

كما يجب أن نتذكر أنها سبقت علي(عليه السلام) بأكثر من ثلاثين قرناً من الزمن، ولو أردنا أن نحضر شواهد أخرى فإن الكتابات المصرية القديمة وحدها تحتاج إلى أضعاف أضعاف ما نحن بصدده، لكن كانت الغاية فقط إيراد أنموذج مواز للفكرة التي نبحث عن دلالاتها، وهي أصالة البحث عن الإمام في عمق الوجدان الإنساني، وقد عبرت هذه المقطوعة عن توجه المحتاج، ورسمت ملامح كمالاته التي يعتز بها، ويدأب من أجل الوصل إليها.

ـ وإنّه إن لم يصل، فيكتفي بتقديس شخصية تعبر له عنها، والواقع أن الإنسان بفطرته يبحث عن ا .

وهذا الأمر لا يفوتنا الالتفات إليه (يبحث عنه بفطرته

وباحساساته).

يقول مرتضى مطهري: "إن من أرفع غرائز الإنسان واحساساته حسه الديني، وفطرته في البحث عن ا "(١).

وهذا هو المجال الحيوي الذي تتحرك من خلاله قوى الروح نحو جاذبية فوق أي احتمال، لكن الواضح أن الإنسان في رتبة لا تؤهله لبلوغ هذا المقام، وإن قال عدد من الأفاضل بحصوله عن طريق الشهود الذي ينطلق من شهود النفس.

يقول الطباطبائي: "فالكمال الحقيقي للإنسان وصوله إلى كماله الحقيقي ذاتاً وعوارض، أي وصوله إلى كماله الأخير ذاتاً ووصفاً وفعلا أي فناؤه ذاتاً ووصفاً وفعلاً في الحق سبحانه، هو التوحيد الذاتي والأسمي والفعلي، وهو تمكنه من شهود أنه لا ذات ولا وصف ولا فعل إلا سبحانه، على الوجه اللائق بقدس حضرته جلت عظمته، من غير حلول واتحاد تعالى عن ذلك"(٢).

ـ والواقع أن ذلك لا يكون، بل أن ا سبحانه يجعل الطريق إلى معرفته طريق قلب وعقل، فيرسل الرسل ويقيم الحجة، من أجل بلوغ الإنسان جادة الطريق الذي لا يعرفه حق معرفته غالباً بدون هاد، والطريق هو كما سبق تفويت فرصة التحول بالحقيقة الإنسانية

---

١ ـ مرتضى المطهري، معرفة القرآن ج١، ت، جعفر الحلي، ط طهران، ١٤٠٢، ص٨٢.

٢ ـ رسالة الولاة، م. س. ص٥٩.

إلى أمر آخر سواها، كي لا يصاب الإنسان بتعدد العبادات، أو بتعدد المعبودين، فينحرف عن التوحيد الذي هو زبدة الرسالات السماوية.

ـ وحين يتبين لنا عدم التعلق بما هو غير ذلك، وكي لا يتوهم المرء أنه يتبع رسولا بعدت المسافة الزمنية بينه وبينه، فينحرف عن سواء المعرفة، جعل ا سبحانه أئمة يهدون إليه.

ـ وإذا كنا قد اتخذنا من إبراهيم(عليه السلام) نموذجاً لهذه الإمامة، فلأن الآية المباركة حملت العهد على الإمامة وجعلتها شاملة للنبوة والخلافة(١) فيما يتطابق على المثال، الذي يرغب الإنسان ـ مطلق الإنسان ـ في إدراك هديه.

ـ وعندي أن الإمام الذي يرفعه ا ويجعله قيماً ومركزاً يشع نوره على البشرية لا يختلف عن كتاب ا في شيء، لاشتراكهما في حقيقة واحدة، هي حقيقة الهداية، لقوله تعالى: (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة)(٢) والواسطة التي تجمع ما بين الكتاب والإمام، هي جعل ا لهما ميزة النطق بالحق، كقول الإمام علي(عليه السلام)في القرآن الكريم: "هذا كتاب ا الصامت، وأنا كتاب ا الناطق"(٣).

---

١ ـ أنظر: روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، الآلوسي: ٣٧٥/١، وما بعدها.

٢ ـ الأحقاف: ١٢.

٣ ـ أنظر: وسائل الشيعة للحر العاملي: ٣٤/٢٧ (٣٣١٤٧).

بهذا يكون الإمام (المثال) مجعولا في هذه المرتبة من قبل ا عز وعلا، وهو بخلاف الآراء التي تنظر إلى الإمام علي(عليه السلام) أنّه الزعيم أو القائد الذي يملك زمام السلطة السياسية، أو إدارة حكم بلد معين، أو حتى فقيهاً نال رتبة من العلم بجهد ونباهة.

نعم يمكن استخدام مصطلح (إمام) في هذا المقام للدلالة على قيادته، من أم القوم أي رأسهم، لا لفضيلة الهداية التي اختص فيها ا أولياءه الذين هم صفوته، والذين فيهم الحفاظ على هداية الناس إلى دين ا من جهة، وحملهم على الطريق الذي ينالون به سعادتهم الواقعية في الدنيا والآخرة، لأن جدارة الشخص في ممارسة السلطة والتطبيق لا يعني مجال الشعور بإمكانية نصبه إماماً فكرياً ومرجعاً أعلى بعد القرآن والسنة النبوية(١).

الإمامة

بلغنا إلى تحديد مفهوم الإمامة بالمعنى الشمولي، وفق المصطلح الذي أجريناه في مباحثنا.

وعلى أثر تفريقنا، أو وضعنا لهذا المفهوم الشمولي بالنظر إلى الإمامة كحاجة تسعى إليها الفطرة الإنسانية، نصل إلى النتيجة التالية(٢):

---

١ ـ أنظر: بحث حول الولاية، للسيد محمد باقر الصدر.

٢ ـ هنا اشارة إلى الأمر الثاني الذي ذكر في أول الفصل الثاني.

إن الإمام ضرورة في حياة الإنسان، ولهذه الضرورة أهمية كتلك التي تعرف بحاجته إلى الطعام والشراب، فبهذه ينمو جسده وبالإمامة يتلمس حقيقته، وبهما معاً يستعين على السير في طريق كماله، طريق استمتاعه بالحياتين، هذه التي نعانيها على وجه الأرض، وتلك التي نتهيبها بعد الموت.

وباعتبار الإمام ضرورة ـ وفق هذه النتيجة ـ نرى أنه لابد من بحث الرتب الاجتماعية التي حفلت بتسمية تشابهت عند الناس، بين الزعامة والقيادة التي تكون في الرئاسة، وبين تقدم الناس في رأي أو فطنه أو شأن من شؤون المعاش، وبين الإمامة التي هي الملاذ النهائي لكل إنسان لا لفئة ولا لخاصة ولا لقوم.

ومن أجل أن نتمكن من حصر المفردات ضمن ما يترتب عليها من معان تقرب الفكرة وتحيط بها ونخاص بعد ذلك إلى نتائجها، نرى أن نعرف أولاً بالماهية التي تتحرك في أرجائها هذه المفردات (الزعامة، والخلافة، والولاية)، الأمر الذي يجعل من كل تسمية من هذه التسميات، فرعاً من فروعها تارة، وربما يتمكن أحد أن يقول: إنّها تنوب عنها تارة أخرى.

هذا صحيح عندما تكون العملية تفيد شؤون الحياة، بما يحتوي عليه من معاش وسياسة، واجتماع، واقتصاد، فيمكن أن نستخدم كلمة (زعيم) مثلاً عند التعريف بسياسي، وأن نستخدم كلمة (خليفة)

عند الإشارة إلى شخص يلي شخص قد سبقه في شأن، أياً كان هذا الشأن، فللخلافة أسبقية فهي لا تطلق على من يبدأ الأمر، بل على من يأتي بعد ذلك الذي بدأه، ويمكن استخدام كلمة (قائد) عند التدليل على من يمسك بزمام الجماعة من الناس، ويمكن استخدام كلمة (رئيس) لأكثر من دلالة، لكن هي تعني المتقدم في حكمة أو علم أو ارشاد في الغالب.

وبالنسبة (للولاية) فإن لها مدلولات متعددة، أهمها:

١ ـ دلالتها على تملك شأن ومباشرته، وهو من باب السلطة على الشيء.

٢ ـ المعاضدة والنصرة، وفيه قوله تعالى: (ا ولي الذين آمنوا)(١).

٣ ـ الوصاية، وتجري مجرى الولاية التي تحصل على من لا يمتلك القدرة على التصرف بشؤونه، كالطفل أو العاجز، فتنتقل ولاية أمره إلى من هو ممن خواصه،أو إلى سلطة تنظر في شؤون الناس.

وفي الولاية بشكلها العام ما يفهم على أنّها قدرة على حمل المسؤولية، ولهذه القدرة درجات:

ـ منها درجة حمل مسؤولية احتضان بشر قصر، وإدارة أمورهم إلى أن يبلغوا درجة يمتلكون معها هذه المقدرة، فتنتهي هذه الولاية

---

١ ـ البقرة: ٢٥٧.

ـ الوصاية ـ عليهم.

ـ منها درجة حمل مسؤولية مال عام، أو خاص، والحفاظ عليه وتكثيره والاستفادة من حركته إلى أن يصل إلى الذين ولّوا عليه من وجدوه كفؤ.

ـ منها درجة حمل مسؤولية بلدان، وإطلاق يد الوالي القيم فوق شؤونها.

إلى آخر درجات هذه الولاية.

ولهذه الدرجات من المقدرة اعتبار في الخطاب القرآني، ويمكن تلمس النظرة القرآنية إلى الدرجة الأُولى منها، وهي درجة منتهاها، حيث يعيد ا سبحانه هذه الولاية بالمطلق إليه عزوجلّ، بقوله: (مالكم من دون ا من ولي ولا نصير)(١)، فهو الملجأ الحقيقي، وهو الناصر الحقيقي وتتكرر هذه الآية في أكثر من موقع في القرآن الكريم، وهي تشدد على أن يلتفت الإنسان إلى أن ا سبحانه، هو صاحب المسؤولية على كل شي خلقه، وإليه ولاية أمر كل شي، حتى إذا أراد ا بقوم سوءاً، فإنه لا مرد لهذا الأمر، وليس لهم من ولي سواه يقول سبحانه:(وإذا أراد ا بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)(٢)،فتكون درجة الولاية العلياوالأُولى على مطلق

١ ـ البقرة: ١٠٧، العنكبوت: ٢٢، الشورى: ٣١، الأحزاب: ١٧، وفي سور أُخرى.

٢ـ الرعد: ١١.

الموجودات له سبحانه.

وبعد أن تبين لنا أن الدرجة الأولى هي سبحانه في الولاية، وأنّه حاكمها بالمطلق، نجده يمنحها عز وجلّ لبعض من الذين خلقهم، فمن يليق بهم أن تقترن ولايتهم بولايته سبحانه؟ فبعد أن حصرت ولاية الخلائق با سبحانه، حمل الرسول(صلى ا عليه وآله) هذه الرتبة كما حملها الذين آمنوا، يقول تعالى: (إنما وليكم ا ورسوله والذين آمنوا)(١).

والجدير بالملاحظة هنا أن هذه الآية التي تصرح بأن ولاية الناس ورسوله والمؤمنين، هي الآية الوحيدة بهذا اللفظ في القرآن الكريم، التي تشترك مع ا في هذه الرتبة من أختارهم لهذه الدرجة، ونكون قد حصلنا على اعتبار الخطاب القرآني لهذه الدرجة، وهو اعتبار يرسي دعائم البحث، عن الذين تنبغي المعرفة بهم من الأولياء غير رسول ا (صلى ا عليه وآله)، لأن الرسول مخصوص بالاسم، أما الذين آمنوا فينبغي معرفتهم بما يحملون من صفات تمكن من تخصيصهم بعد ذلك بالاسم.

الولاية والإمامة

إنّنا حينما أشرنا إلى أن الإمامة تجمع تحت ظلها كل من الخلافة

---

١ ـ المائدة: 55.

والزعامة والرئاسة والولاية، فإن هذا الجمع فيما يختص بالشراكة التي منحها ا لأولياء الناس من الذين آمنوا، ولا ينبغي أن يفهم منها أنّها تشتمل على الدرجة الأُولى للولاية، والتي هي ، بل نحن بصدد الاشارة إلى الدرجة البشرية، والتي تجمع بين الرسول(صلى ا عليه وآله)وبينه، وهو يربط بشيء من الحساسية والدقة، بين إبراهيم والمؤمنين والنبي(صلى ا عليه وآله)والتمسك بنهجهم، ربطاً يحتاج إلى بصيرة كي تقف عنده.

فالولاية التي تجمع بين إبراهيم(عليه السلام) والذين اتبعوه هي ولاية ارتباطاً، فالذين اتبعوه أشد ارتباطاً ووثاقة بإبراهيم(عليه السلام) من سواهم، وإن هذا النبي الذي هو ولي أنفس المؤمنين هو الذي تحتشد في شخصيته وثاقته بإبراهيم(عليه السلام) الإمام، وولايته لأنفس الذين آمنوا، فيشتمل على رتبة الإمامة والنبوة والولاية، وهو المقام الذي تشغله قدسية ذات محمد(صلى ا عليه وآله) بالمطلق، منظوراً إليها على أنّها الامتداد الذي لا ينقطع في حين من الدهر، لا في القديم ولا في الحاضر ولا في المستقبل، لارتباطها بولاية ا سبحانه التي لا تنتهي.

وإذا صح هذا الارتباط ـ وهو كذلك ـ فإن ارتباط ولاية الذين آمنوا بها ستكون قد اقتربت من ظهورها عياناً، كيف ذلك؟

نلاحظ في عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم، أنّه تعالى عندما يتحدث عن الولاية فإنّه يشير إلى أنّها رابطة تنشأ بين أطراف، أما ثنوية أو متعددة.

ففي الآيات التي تتحدث عن مرجعية الولاية سبحانه، يمكن أن نلاحظ الأمور الآتية:

يرتبط مفهوم الولاية في القرآن الكريم فيما بين الذين يتولون ا سبحانه ـ والذين يعرضون عنه ـ أيضاً بعدة جوانب، أهمها ذاك الجانب الذي يخاطب الفطرة خطاب تعيين، أي خطاب عالم متحقق من أنّها تحفز البشر نحو الاستجابة لمطلبهم الأساسي، وهو بلوغ رتبة كمالهم، والذي لا يتحقق بدونه إمام يهدي إلى وصولهم نحو ربهم مطمئني القلوب.

لكنهم يغضون بصائرهم عنها، وعند ذلك نلاحظ أنّه ينعتهم بالضالين (ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)(١)، لأنّهم خالفوا ذاك البسيط النقي في سرائرهم وعاندوا، فصاروا إلى ولاية الشيطان.

ونحن في مباحث الإمامة، ما نزال نتوسع شيئاً فشيئاً، باحثين عن نقاط كبرى وأساسية في نظرية الإمامة وفق المنهج الإسلامي القرآني.

إذن، إن خطاب الفطرة هذا، هو خطاب يحتوي على تصريح بأن ا ولي الذين آمنوا بعضهم أولياء بعض، وأن النبي(صلى ا عليه وآله) أولى بهم من أنفسهم، وأن الذين يبلغون هذه الرتبة (لا خوف عليهم ولاهم يحزنون)(٢).

---

١ ـ الكهف: ١٧.

٢ ـ يونس: ٦٢.

فالذين استجابوا لداعي ا ، وكانت فطرتهم قد اتخذت لها ملجأ نَحو ملاذها ـ أي إمامها ـ وبلغت درجة الإيمان، فإن القرآن الكريم يحاكي هذه الفطرة، يحاكي هذا الإنسان ذا اللب الفطن، بخطاب النصرة، أي ترتبط الولاية بالتأييد والنصرة والمعاضدة.

فإن ا هو الولي، وهو النصير الذي لا يوجد سواه ناصر عند الملجأ، وهو ولي الذين آمنوا بالنظر إلى كونهم يتمتعون بهذا الحق الممنوح لهم من قبله تعالى، وفضلاً عن هذا، فإن ا سبحانه منح رسوله محمد(صلى ا عليه وآله) ولاية المؤمنين على أنفسهم، بل جعله أولى بهم منها، وهو قوله: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)(١)، أي أحق منهم بولايتهم على أنفسهم.

فثمة إطلاق ولاية أمر المؤمنين بمعناه الشمولي، أي بكل دقيق من دقائقه وبكل تفصيل من تفاصيله، وجعله بيد الرسول(صلى ا عليه وآله) حيث مكّنه من الولاية على نفوسهم، وجعلها أفضل من ولايتهم هم أنفسهم عليها.

وفي جميع هذه الحالات، نرى أن القرآن الكريم يشير إلى المؤمنين بشي من التخصيص، أي إلى أولئك الذين يبلغ إيمانهم تلك الدرجة الرفيعة التي تؤهلهم لأن يجعلوا ولاية أنفسهم بيد رسول ا (صلى ا عليه وآله)، وهذا ليس لعامة من آمن فيما يفهم، إذ أن القضية ذات عمق

---

١ ـ الأحزاب: ٦.

أكثر، منها إشارة إلى السطح في درجة يسلم معها نفسه طوعاً له، كما يسلم رسول ا (صلى ا عليه وآله)،عن يقين نفسه لولاية ربه.

ومن المعروف أن الولاية الإلهية هي ولاية خالق على مخلوق، وهذه تحمل جانباً من جوانب السلطة المتاحة في الأصل للمالك الذي بيده الأمر، وهو يخرجه منها ويعيده إليها، أما فيما يختص بعناية رسول ا (صلى ا عليه وآله) وولايته على أنفس المؤمنين، فإنّها وإن كانت تحمل ذلك البعد الذي منحه إياه الرب عز وعلا، فإنّها تتمتع بالإحالة إلى فهمها على أنّها ولاية يطلبها المؤمن اختياراً، حيث أن سلطة رسول ا (صلى ا عليه وآله) ـ أي ولايته ـ على الأنفس نابعة من كون المؤمن بلغ درجة أيقن معها أن هذا الرسول(صلى ا عليه وآله) هو مخرجه ومدخله إلى ولاية ربه، لا عن طريق التوسط، بل عن طريق الدرجات التي يتقرب ويرتفع من خلالها المؤمن، ويفيدنا هنا أن ننظر في الآية المباركة التالية: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا)(١).

ولا ينبغي أن يفوتنا، إن هذه الآية قد جاء قبلها تحديد منهج الديانة الإبراهمية، فقال تعالى: (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين)(٢).

---

١ ـ آل عمران: ٦٨.

٢ ـ آل عمران: ٦٧.

إن إبراهيم(عليه السلام) صاحب رتبة إمامة الناس المجعولة من قبل ا تعالى، وصاحب الخط الإسلامي غير ذي العوج، وهو أحد أهم ما يمكن أن تقاس عليه معرفة المؤمنين الذين هم في الرتبة مع رسول ا (صلى ا عليه وآله) في مفهوم الولاية، وكيف لنا أن نستدل على هذا؟

إن الطريق في الاستدلال بحاجة إلى التبصر في كتاب ا أولا، فكتاب ا لا يأتي بالأمور اعتباطاً، بل هو (يهدي للتي هي أقوم)(١)، وعند الحاجة الحقيقية إلى نصرته، فهو يكفي من تولاه، ولا يترك حاجته عند سواه.

هذا قانون ثابت بين من قوانين القرآن الكريم، وهو دائم السيرورة، أنظر كيف يوهن القرآن الكريم من أتخذ أولياء له غير ا في قوله تعالى: (مثل الذين أتخذوا من دون ا أولياء، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)(٢).

الموازنة بين النور والظلمة

إذا كانت الفكرة قد استوت على جادتها، واستقام لذي بصيرة مفادها، فإن الإمامة عنت لدينا غاية الرجاء، وبها تستقيم المعارف،

---

١ ـ الإسراء: ٩.

٢ ـ العنكبوت: ٤١.

وعليها يتوكأ السائر إلى غاية ينفطر لأجلها عمره، وتسترق أيامه، لا عن عبودية لسوى ا تعالى، إنّما عن طلب الهادي إليه، فهو سبحانه أشار إلى سبل معرفته بالاقتداء بمن يهدي، على أن هذا الذي يهدي بالغاً مبلغ الكمال، الذي تخشع له النفس الإنسانية رغبة في اسهامه في تلبية طلبتها، يقول عزوجلّ: (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتّبع أمن لا يهدي إلاّ أن يهدى، فما لكم كيف تحكمون)(١).

إن لهذه الكلمات الشريفة سعة لمن أراد التوسع، فثمة من يهدي إلى الحق، وهو مفطور عليه لا يحتاج معه إلى تبيان، لأن الكلمات أرفقت بضرورة الإتباع لهذا الهادي الذي لا يحتاج إلى من يصوب له طريقه الذي يسلكه في عملية الهداية، قارن قوله تعالى في متابعة الآية الشريفة: (أمن لا يهدي إلاّ أن يهدى)، فثمة راية للحق تعرفها السرائر، لا يغفل عنها من ينظر إليها، وهذه الراية خلّفها محمد(صلى ا عليه وآله) في آل بيته(عليهم السلام) كيف؟

ننظر هنا في كلمات أمير المؤمنين(عليه السلام) لدى ترتيب هذا الأمر، يقول: "ونشهد أن لا إله غيره، وأن محمد عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، فأدى أميناً، ومضى رشيداً، وخلّف فينا راية الحق" هذه الراية ما فتئ أنبياء ا يورثونها سدنتها الحقيقيين، فهي أمان جملة الكون، لأن ا سبحانه تعهدها واجرى سنته في الحياة

---

١ ـ يونس: ٣٥.

على الحفاظ عليها، وتوافينا متابعة كلمات الإمام علي(عليه السلام) بمزيد من الإيضاح هنا عند قوله: "ألا إن مثل آل محمد(صلى ا عليه وآله) فيكم كمثل نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم، فكأنكم قد تكاملت من ا فيكم الصنائع، وأرآكم ما كنتم تأملون"(١) ان اللطيف صانع الملكوت يعرف ما نأمل، ويعرف الرجاء الخفي في أعماقنا، فلا يكل أمر تطلعاتنا لسوى (المثال).

وعلى أساس كهذا نختم دلائلنا النهائية في مفهوم الإمامة ومعناها، ونشير هنا إلى أن الدين الإسلامي بما هو ختام للأديان السماوية السالفة جميعاً، قد أشبع مناورات النفس ومصارعاتها، ليقول كلمة تفصل بين الحق والباطل في شرحه لمسيرة البشر وتبيينه لطرائق علاج ما يطرأ من مضر على السلوك السليم.

جدل الزوال والبقاء

سوف يسأل سائل: وما هو السلوك السليم حتى يوازن ما بينه وبين المرض؟

وتجيبنا الأبحاث العلمية في مجالات السلوك الإنساني، على هذا بالقول: إن تعلق الإنسان المفرط في أي من اللذائذ الغريزية يقود هذا المرء إلى هلاك من نوع ما.

---

١ ـ أنظر نهج البلاغة: الخطبة ٩٩.

فإن كان لجهة الأمور المعيشية، فإنّه يبذل جهوداً من أجل تحسين معاشه بالقدر الذي ينبغي لجسده أن يحتمله، وإذا ما زاد الجهد فإن التعب كفيل بالإتيان على قواه، وتدريجياً سوف يخسر تلك المقدرة.

وإن كان في وسائل اللّذة الجسدية، فإن للجسد طاقة قبالة أية لذة، وعند استنفاذ هذه الطاقة ينبغي الإسترخاء من أجل الإستعاضة، وفيما لو لم يحدث هذا فإن الجسد معرض للهلاك.

ولا نرغب في الإسهاب في هذا، فهو بين وغير محتاج إلى توصيف، لكن العلم والمعرفة غاية لا تهلك، وإنّما تربى وتنمو، وتزيد بالتبصرة، وتعطي لكل شيء حقّه، وهنا مكمن شغف الناس في كشف المجاهيل بكل أصنافها النافع منها والضار.

ونريد أن نوجز أخيراً فيما أسسنا له عند تناولنا جوانب الإمامة، بأن الإسلام دين واسع الأبعاد مليء بالمنفعة ملء الحياة، لكننا سوف نطرح سؤالا هنا من صنف تلك الأسئلة الإشكالية، وغايتنا من ورائه اشعال فتيل الفكرة التي تدخلنا إلى محراب الإمام علي(عليه السلام) كباب لمعرفة سر الإمامة في الناس، والسؤال هو:

هل قال الإسلام كلمته التامة وانتهى، أم أنّه يختزن بعد ما لم يأت أوان البوح به؟ قبل الإجابة أو التحرك في أجواء هذا التساؤل، نأمل أن نلتفت إلى هذه الآية الشريفة يقول عزمن قائل (كتب ا لأغلبن

أنا ورسلي)(١)، وقوله تعالى أيضاً: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)(٢) والناظر في هذه الكلمات الشريفات، يعرف أن ا سبحانه ليس مع خلقه في صراع حتى يشير إلى أنّه سيغلب هو ورسله، وأن الأرض ليست ميراثاً لغير الصالح حتى يرثها فيما وراء ذلك الصالح، وإنّما يفهم عند التأمل الدقيق لهذه الكلمات، أن الناس سوف تصل بالنتيجة إلى حتمية السير نحو تعليمات ا ، لأن كل مسيرة في خلافها كيفما كانت لن توصل السائر نحوها إلى جهة تحقيق سعادته بدون الاسترشاد بهدي ربه، وإن التجارب الإنسانية والأنظمة التي يستمدها من خلال تراكم خبراتهم وتوالي تجاربهم دائمة النقص ودائمة التغيير، إلاّ أنّه سبحانه يرسي قواعد سلامية العيش في الحياتين، عندما يصف أن الغاية من وراء الرسل التي يرسلها تكمن في إقامة الناس على جادة الصواب بالعدل.

يقول سبحانه وتعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)(٣)، يريد: لم نجعل الأمر على الناس غامضاً ملتبساً، بل أزلنا الشبهات، وبالرسل وافينا الناس بما

١ـ المجادلة: ٢١.

٢ـ الأنبياء: ١٠٥.

٣ـ الحديد: ٢٥.

يجعل سيرهم واضحاً، وطرقاتهم سليمة، ولكي يستمر هذا المنطق مع الأجيال، أيدنا الرسل بالكتاب الذي يحكم به بين الناس، وتوزن على أساسه مقامات السير الصحيح بهم من السير الخاطىء، والغاية كما تفيدنا الآية الشريفة هي أن لا يظلم البشر بعضهم بعضاً، ولا يظلموا أنفسهم كذلك.

إذاً كأنّك تصلّ معي أيها الأخ الكريم إلى أن ا سبحانه قد بين لمخلوقاته أنظمة العدل بعد أن أرسل الرسل، وأقامت هذه الرسل البينة، وثبتها الكتاب، وجميع هذه المراحل الرسالية تهدف نحو رجاء الناس في أن يمحق الظلم الذي يشكّل العائق الأول والأشد أثراً على تقدم ووعي المجتمعات، وصلاحها وسلامة سيرها.

وبدلالة عدم إنقطاع طرائق العبادة تاريخياً وحضارياً بين بني الإنسان التي لفتنا إليها في أماكن متقدمة، نتعرف على أن الدين لم يخترع من قبلهم وإنّما بادر الرسل إعطاءهم النصح وتعلم البقاء في كنف ا ، حتى يتيسر لهم المسير نحو العدل، ولا يظلم بعضهم بعضاً، فكانت النبوة شجرة تمتد فروعها أبداً وفي كل فينة وأوان تؤتي ثمرة من ثمارها، ولهذه الثمرة التي تنعم بها الحياة امتداد واستمرار، يقول علي(عليه السلام) في ذكر النبي(صلى ا عليه وآله): "اختاره من شجرة الأنبياء، ومشكاة الضياء، وذؤابة العلياء، وسرة البطحاء، ومصابيح

الظلمة، وينابيع الحكمة"(١).

وهذه الشجرة أصيلة في وجودها، ترعى الخلائق بثمارها ولهذه الثمار موازين، هي مقامات الخروج من الظلمات والولوج في ملكوت النور، ومنابع الحكمة التي تسري في وجود الحياة، لكأنك هنا تلحظ معي ذاك الربط بين النور والظلمة، هذا التضاد، وبين الينبوع الذي يرمز إلى الماء الذي هو سر الحياة وعلى هذا القول نقف قليلا لنتبين الروابط التي أشار إليها عزوجلّ في كتابه وبينها نبيه محمد(صلى ا عليه وآله) والإمام علي(عليه السلام) في نهجه.

يذكر القرآن الكريم في العديد من المواطن، أن الذي ينحرف عن سبيله يلج الظلمة، وأن سبيله هو النور كلّه، والذي لا شك فيه هو أن ا سبحانه خلق الخلائق محباً لها وهذا داعي متابعتها بالهداة أبداً، ويقول تعالى في وصفه لأوليائه (ا ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)(٢).

ولعلّنا نستدرك بشيء من التأمل أن تولي ا غير متحقق بدون الإلتفات إلى الرسل الذين بعثوا بالبينات والنظر في كتاب ا الذي يحمل في جنباته النور، وننظر هنا في قوله سبحانه: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أُنزل معه)(٣) والنور هنا هو

١ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ١٠٧.

٢ـ البقرة: ٢٥٧.

٣ـ الأعراف: ١٥٧.

الكتاب أو ما في الكتاب، بحسب ما يستلهم من قوله تعالى:(قد جاءكم من ا نور وكتاب مبين)(١) أو قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)(٢).

وإذا استرسلنا في متابعة الذكر الحكيم واستخراج ما يفيض ا سبحانه، نلحظ أن النور الذي يبعد عن القلب حجب الظلمات، له وطن واحد يعرف به، ويلجأ المخلوق نحوه، وهو مستودع هذا النور، وهو (النبي، الرسول، الإمام) في آن واحد معاً، يذكر سبحانه هنا قوله: (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور)(٣) ففي الناس من يهدي دائماً إلى نور ا قائماً بكلماته، غير عابئ بخلاف الحق، فيه خصال الجمع لمواطن العدل، كما رسخ عزوجلّ بإبراهيم(عليه السلام)ذلك المستودع العظيم للشأن الشامل للنبوة والإمامة حين أعلن نصاب هذه المرتبة بقوله: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً)(٤)، ومعلوم أن ا سبحانه واتر الرسل في الناس، يقول تعالى: (سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا)(٥) وقوله: (ثم

---

١ ـ المائدة: ١٥.

٢ ـ إبراهيم: ١.

٣ ـ الحديد: ٩.

٤ ـ البقرة: ١٢٤.

٥ ـ الإسراء: ٧٧.

أرسلنا رسلنا تترا)(١).

إنّهم كما سلف شجرة النبوة، الهداة إلى الحق بنور ربهم، وقد جعلت فيهم وفي ذريتهم خاصة، ولنقرأ معاً هذه الآية المباركة:

(ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب)(٢) التي تدلنا على المواطن الذي لا يتحول إلى سواه اللب عندما تكون النفس باحثة عن غشية النور، فارة من دياجي الظلمات.

ويمكن أن نسلهم من كتاب ا ما يفيدنا أن مثل هذا المقام ليس من العسر بلوغه، بل أنّه في غاية اليسر، فالفارق الجوهري بين النور والظلمة كما بيناه من المنظور القرآني، هو قيام الناس بالقسط بحسب ما تقدم، ولكن هل هذا المطلب قليل حتى لا يستجيب له الناس، هل يرغب بني البشر بتعقيدات وتنظيرات وفلسفات حتى تتكشف لهم وسائل التحقّق من سلامة العيش.

هنا تكمن أهمية ما تقدم من مباحث الاستجابة للفطرة السليمة، التي تصبو النفس لرفع الحجب لتعرف إمامها، والذي نعول عليه أخيراً، هو الفارق بين من أبصر ومن هو غاض بصره، كيف؟

لنستمع إلى هذه اللفتة القرآنية في تحديد منازل الظلمات والنور،

---

١ ـ المؤمنون: ٤٤.

٢ ـ الحديد: ٢٦.

يقول سبحانه وتعالى: (هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور)(١)، ثمة ما يثير في المتأمل شهوة التعمق في هذا الكلام، حتى يبلغ بإذن ا مراده لعل الظلمات مساوية للعمى هنا، مثلما النور مساو للإبصار وفي الموازنة بين

الإبصار والعمى، ينبغي أن ندخل عمق وروح هذا التعبير، بعد أن نعرض الآية التالية: (وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور)(٢).

اتضحت لنا الآن سوية النور وسوية الظلمة، إن النور يساوي الإبصار بحسب هذا الاستنتاج، كذلك تساوي الظلمة العمى، لكن الواقع أن العمى الذي ترجح الإشارة إليه هنا، ليس عمى العيون التي تنقل المشاهد الخارجية إلى العصب البصري ليذهب بدوره إلى مركز الاستقبال الدماغي فيكون له معنى ينطبع في المخيلة، وإنّما الوارد أن يكون هذا العمى هو عمى الذات، أي تيهها واستغراقها في الجهل وعدم دراية المتجه مع وضوحه وبيانه، وهذا يؤخذ من قوله تعالى: (فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)(٣) وإذا حملناها على هذا المحمل، فإن القلب الذي يشار إليه في القرآن هو مركز التعقل ومكمن الإستجابة للنداءات، وهو

١ـ الرعد: ١٦.

١ـ فاطر: ١٩، ٢٠.

٣ـ الحج: ٤٦.

الذي يقابل الإبصار بالنور، أو الذهاب في العمى.

وتشير الآيات الكثيرات اللواتي يخاطبن قلب الإنسان لا عناصره الخارجية، إلى أن المقصود بالموقع الذي يخاطب على الإستواء بين الإبصار والعمى هو القلب يساوي الحقيقة العاقلة البشرية، فننظر قوله سبحانه: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)(١).

وغني عن البيان أن القلب المشار إليه والذي يتولّى مهام التدبر، هو الذي يملك آلية تقليب أوجه الأمر واستشفاف ما ينفع مما يضر، كذلك عند سماع هذه الكلمات: (نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين)(٢) فالرسالة عهد ا ، ونوره كتابه، تنزل على القلب الذي يملك تحملها وحفظها ومبادرتها.

وكذلك لا يسع الباحث أن يقول أن القلب هو تلك العضلة التي تشبه المضخة التي تقذف الدم إلى العروق، إنّما هو الجوهر الإنساني المخاطب، وهو مكمن الفكرة الخالصة، وروح العقل، لذلك تشير الآيات الكريمات إلى أن القلب مكان التعقل والتّفقه والتفكّر ويقول تعالى: (لهم قلوب لا يفقهون بها)(٣)، وهذا المكان هو موطن

---

١ ـ محمد: ٢٤.

٢ ـ الشعراء: ١٩٣، ١٩٤.

٣ ـ الأعراف: ١٧٩.

الإيمان بعد ذلك، وموطن عدمه أيضاً، في قوله تعالى: (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)(١)، وقوله تعالى: (لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم)(٢).

من جميع ما تقدم وسواه من واسع فيض كلامه سبحانه، نستنتج أن القلب هو الموطن الذي استهدف رسل ا ايناعه وعملوا على انباض جنباته بالنور، وهو مركز استقطاب هذا النور، وهو الذي تتعين الفطرة في عمقه، فإن حجب عمي، ولا يستوي حين ذاك صاحبه مع من لا يرى إلى أين ولا كيف يسير، وعلى هذا القلب أن لا يتباطأ منذ الآن، ثم التعرف على هداته من أجل التقاط خيط النور، والإفلات من ضلالات الظلمة.

وإن ا سبحانه بما خص به مخلوقاته من حب، بأن أفاض عليهم نعمة الوجود، لعالم بسرائرهم، كما هو عالم بما يصرفهم عن حقيقة بحثهم ودأبهم نحو مثالهم وكمالهم، فواتر فيهم أنبيائه منذ أقدم عهودهم، وأيدهم برجالات ينصرونهم، وتمايزت القلوب في المؤيدين، وتفاوتت منازلها كل بمقدار، إلاّ أنّه سبحانه لم يخل الأرض من هاد أبداً، وهذا الشأن يلاحظ في قوله تعالى: (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)(٣)، فهو يدلّ على أن الهداة لا ينقطعون من

---

١ ـ الحجرات: ١٤.

٢ ـ المائدة: ٤١.

٣ ـ الرعد: ٧.

جهة، وأنهم من جهة ثانية يؤدون أدوارهم.

وإلى هنا نصل إلى أن (راية الحق) تخلّف في الهداة، وأن الإمام لهو الملاذ (المثال)، فلعمري لا تكون هداية الناس إلاّ إحدى خصائصه، وليست جميعها.

الطريق إلى الإمام علي(عليه السلام)

علينا أن لا نستغرب من هذا العنوان، لأنّه وضع بعد ذلك التمهيد الذي اعتمد منهج التحليل والاستنتاج، من أجل وضع لبنة جديدة في بنيان مفهوم الإمامة عسى ينظر إليها بعين التأنّي، وتؤخذ مع من يتوسع بها إلى ما هو أكثر إفادة ونفع.

ونحن في هذا الفصل بحول ا سوف نحاول الإجابة على مجمل ما يرد على تلك المقدمة في الإمامة من أسئلة أو إشكالات، كما سنحاول بالنتيجة أن نعطي تصوراً موضوعياً في الإجابة على السؤال الإشكالي الذي طرح قبل قليل حول كلمة (الإسلام).

نبدأ أولاً بالنظر إلى انطباق مفهوم الإمامة الذي أجريناه في بحوثنا على الإمام علي(عليه السلام)، ويفيدنا في هذا المجال أن تقسم هذه البداية إلى عدة أقسام:

القسم الأول: في تسلم راية الإمامة

نود أن نذكر بأنّنا وصلنا في الفرق بين الإمامة وأنواع الزعامة التي تنضوي تحت ظلها، ولا تطاولها بحال، ونرغب أن يستمر القارئ معنا في التمسك بالطريقة القرآنية التي تجعل من القلب وطناً للتعقّل.

لقد سمح لنا التحرك في أرجاء المفهوم أن نغادر المعنى الظاهري لكي نتعمق في معرفة الإمام في عيانيتها، وتراءى لنا أن الفرق بين النور والظلمة يساوي الفرق بين الإبصار والعمى، ونلاحظ أولا أن علي بن أبي طالب(عليه السلام) في كلماته يتناوب كلمة (ضياء) كلّما ورد ذكر محمد(صلى ا عليه وآله) أو ذكر القرآن الكريم، أو ذكر أهل البيت النبوي(عليهم السلام)، كذلك نرى أن رسول ا (صلى ا عليه وآله) عندما يشير في كلامه إلى أهل بيته(عليهم السلام)، فإنّه يصفهم بأداة النجاة من الغرق، والتي تشبه إلى حد بعيد مفهوم الخلاص من الهلاك، والذي يمكن أن يحمل على أن النور هو الخلاص، والظلمة هي الهلاك، فكيف يستدل على هذا النور؟

بالدرجة الأولى ينبغي أن تنقطع نهاية هذا الأمر إلى ا سبحانه

فهو الذي يحيله إليه، يقول سبحانه: (ا ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)(١)، لكن هذا الإخراج كما لاحظنا مشروط وفق القانون الإلهي بالإيمان، والإيمان كما بيناه في بحث الفطرة لا يأتي من غير دين، وإذا كنا قد بلغنا في متابعتنا لمسيرة النفس الإنسانية وما تحمله من قابليات، وتبين لدينا أن الإنسان بطبعه منصت إلى نداء داخلي يتعلق به من قبيل الاعتقاد، وسقنا على ذلك شواهده العلمية، نصل بعد ذلك إلى حتمية أوردها الإمام علي(عليه السلام) في كلماته، المفتاح الذي يفتح قفل هذا الأمر، وهو كلامه الآتي يقول: "أول الدين معرفته ـ أي ا ـ "(٢).

واللافت يقيناً أن هذا القول لا ينحصر بالإسلام، وإن كان لا يرى فوق أو غير الإسلام ديناً، إنّما هذا يلفت إلى الأديان كلّها باعتباره يصرح بالأوليات التي تبنى عليها فيما بعد النتائج، وهو يسلسل هذه النتائج معتمداً هذه النقطة الأولية على أنّها مفتاح البداية (أول الدين معرفة ا)، والذي يقودنا إلى هذا، هو أن ا سبحانه خلق الخلائق وهداها إلى نوره، فمنذ البدء ثمة هذه الأولية، منذ تكوين الناس وإعمارهم للحياة، وهو الذي فطرت عليه الإنسانية، وهنا نماك أن نقول: إن المعرفة بالضرورة توصل إلى الإيمان.

---

١ ـ البقرة: ٢٥٧.

٢ ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ١.

وهذا الإيمان الذي تشكّل من جرائها ترتبت عليه درجات الكمال التي يشير إليها(عليه السلام) في متابعة كلامه، بقوله: "وكمال معرفته التصديق به".

ويقول "الطباطبائي" في معرض شرحه لهذه الجملة: "والتصديق هذا هو الذي يوجب خضوع الإنسان له في عبوديته، وبهذا التصديق يرسخ الاعتقاد ويثبت، لذلك كان هذا التصديق كمال المعرفة"(١).

عند هذا المقام سوف تنطبق الآية الكريمة على أن ا سبحانه يتولّى إخراج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور، ولكن هذا لا يكون قبل الخضوع للعبودية بحسب قول الطباطبائي.

وإذا حملت هذه العبودية على أولية المعرفة ومتابعتها إلى كمالها، نجد أن ا سبحانه في هديه أجرى قانوناً أورده في كلامه عز وجلّ، هو إرسال الرسل وتزويدهم بالكتاب وهم ملاك الطريق إليه، يقول سبحانه وتعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور)(٢)، فيمارس الرسول هذا الدور بما أوتي من خصيصة تشتمل على الولاية، فا عز وجلّ كما أثبتنا قبلا هو صاحب الولاية المطلقة على جميع خلائقه بلا اشكال، وهو الذي

---

١ ـ علي والفلسفة الإلهية: ٤٤.

٢ ـ إبراهيم: ٥.

يتولى المؤمن ويخرجه من الظلمات إلى النور، وهو الذي يمنح هذه الرتبة للهداة الأول، يمارسون بدورهم الممنوح من قبله عملية إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

لكن هل انحصرت هذه العملية بالرسل والأنبياء؟ وهل هذه الوظيفة الكونية بما لها من ضرورة وأهمية دائمة أبداً ما دام هنالك بشر على وجه الأرض تنقطع برحيلهم عليهم الصلاة والسلام؟

من الناحية العقلية لا يظهر أن ذلك يكون، وعلّته واضحة في كتاب ا سبحانه وتعالى وسيرة الحياة الإنسانية، والذي عليه الحال أن المجتمع الذي يعتنق اعتقاداً دينياً حصل عليه من قبل نبي أو رسول ثم تغيب هذا النبي أو الرسول، لسبب ابتعاد أو وفاة أو أي سبب آخر وإن كان قد أنجز رسالته، فإن هذا المجتمع يأخذ تدريجياً بتغيير هذا الاعتقاد، وفي مثل هذا الحال تذهب العقائد نحو تبدلات تطرأ عليها، وقد تكون هذه التبدلات منذ البدء طفيفة وتأخذ مع الزمن بالتطاول أو التفرع، وقد تكون كبرى كتلك التي حصلت مع نبي ا موسى(عليه السلام)، حين غادر أتباعه إلى ميقات ربه واختفى عنهم وخلف فيهم أخيه هارون(عليه السلام)، وأنّه لما رجع إليهم وجدهم قد انحرفوا انحرافاً كبيراً عن التوحيد ودخلوا في الوثنية من جديد.

هذا الانحراف الكبير يورده القرآن الكريم في معرض الكشف عن طرائق البشر في التعامل مع هداتهم، على الرغم من أن هذا

الهادي يصرف كل جهده في دعوته ويعرض حياته للخطر الدائم والأكيد، لأنّه لا يلين ولا تعرض عليه عوارض قبول التخلي عن رسالته، لذلك كانت الهداة صفوة خلق ا كما يرد في عدد من آيات الكتاب الكريم، وإذا كان موسى(عليه السلام) من هذه الصفوة (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي)(١)، وقد برز إلى فرعون وأنجز رسالته وأوفى إلى الذين اتبعوه.

إذا كان موسى ما يزال بين ظهرانيهم، وغادر مستجيباً لداعي ربه، وخلّف فيهم نبياً هو هارون، وأن الفاصل الزماني هو عدة من أيام، نلاحظ كيف انقلبت العقيدة التي تركها فيهم هذا الوقت، يقول ا سبحانه هنا: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً)(٢)، وأين كان خليفته هنا في هذه المرحلة البالغة التعقيد؟ أين كان هارون؟

ويقول ا تعالى في متابعة القصة، إن موسى عندما عاد إلى قومه وجدهم قد آلوا إلى العجل فقال: (بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني)(٣).

---

١ ـ الأعراف: ١٤٤.

٢ ـ الأعراف: ١٤٨.

٣ ـ الأعراف: ١٥٠.

وفي الواقع ان الخليفة الذي تركه الرسول موسى(عليه السلام) لم يكن ضعيفاً ولا ليناً، حتى يقبل بالنزول عن عقيدته، بل أنّه ـ بحسب القصة القرآنية ـ كان رجاء توسل موسى تعالى أن يحقق له ليشدد به أزره، ويؤيده بنصرته، لكن الحق أن طبائع الناس في العقائد والأديان عرضة للاهتزاز إذا لم تكن الهداة على رأس حياتهم دوماً، ومع أنّهم يكونوا كذلك، فإن التعبير والتحريف في العقائد نصوصاً أو وصايا أو أفعال يجري، فكيف عند غياب المركز؟!

لكن على الرغم من ذلك، نجد نسقاً من المؤمنين بالأديان لا يغادر الصواب، وأنّه إن حصل ذلك وغادرت فئة أو فرد أو جماعة، فإن قلوبهم قابلة لإزاحة العمى والعودة إلى جادة النور، وهؤلاء يحظون بعناية كبيرة في الذكر الحكيم، ونلاحظ قوله تعالى في هؤلاء الذين يؤمنون بالأنبياء ويعتنقون دين ا تعالى، ثم يبتعدون عن جادتهم أنه جل وعلا يصفهم: (فخاف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً)(١).

وهنا يستعرض تعالى شريحة تغادر رسالة أنبيائها بعد أن آمنت، وتضيع عباداتها، لكن ثمة تلك الفئة التي اهتزت مواقفها القابلة للرجوع يذكرها هنا قوله سبحانه: (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً)(٢).

١ـ مريم: ٥٩.

٢ـ مريم: ٦٠.

يتضح لنا من خلال هذا أن الناس يوقنون، ثم يتبدلون، ثم يرجعون، ومنهم من يفجر فلا يملك طريقاً إلى نور ربه فيضل ضلالا، بحيث يصبح قلبه في دياجي الظلمات، وترسخ هذه الظلمات في وجودة، فينطبق عليه القول أنّه ضل بما لا يمكن بعد ذلك شيء من الرجوع، ويصدق عليه قوله سبحانه: (فلن تجد له ولياً

مرشدا)(١)، لأنّه أقفل على قلبه، وغادر فطرته إلى الأبد، فلا ملاذ له ولا إمام له فهو في عتمة لا نور فيها.

وفي الناس من تلج الظلمة قلبه، ويستغرق فيها ردحاً، ثم تتجه خطا نفسه نحو تطلعات النور، فتقترب منه تدريجياً إلى أن تلوذ به، وتتحسس آنئذ بواعث الرحمة والهدى، وتنكشف على إمامها، وتتوب من ذاك الذي أقلقها لحين من الدهر.

في حمل راية الحق

ونتبين أيضاً أن راية الحق هي راية النور، التي يخرج بها ا الناس من الظلمات تحملها الأنبياء، فتنشر ضياءها إلى الناس، وعند مغادرة النبي يحملها من يقوم مقامه.

وأي مقام هذا؟، بدون شك هذه ليست وظيفة إدارية، ولا هي زعامة سياسية أو عسكرية! أظن أن القارئ الكريم، قد انكشفت له

---

١ ـ الكهف: ١٧.

الآن بعمق ماهية الفارق بين الإمامة التي ينظر إليها الناس على أنها شكل من أشكال التقدم في شؤون العمل الحياتي، أياً كان هذا العمل، وبين الإمامة التي هي مقام حمل راية الحق، راية النور، المقام الذي يخرج به ا تعالى الناس من الظلمات، وهذا منصب لا يعطى لأحد إلاّ بالمشيئة والقرار الإلهي.

كيف ذلك؟ نستمع إلى هذا الكلام المبارك من قوله تعالى: (إن ا اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)(١)، إن مفهوم الاصطفاء الإلهي هنا لا ينازع، بمعنى لا مدخلية للمخلوقين في إقراره أو عدمه، فالمنطق الذي يحكم حمل راية الحق هو منطق الحكمة الإلهية، وإذا كان ا مولى الذين آمنوا (يخرجهم من الظلمات إلى النور)(٢) قد أنجز مشيئته في وضع الهداة إليه وحمله راية نوره، فالحق في الإقرار بهذا أو نفيه ليس من صلاحيات البشر.

ولقد ثبت على أرض الواقع أن هؤلاء الذين اصطفاهم سبحانه هم الذين أنجزوا مشروع الدين في الناس على مدار الأزمنة، وإذا أراد المرء أن يتابع حركة مسيرتهم، فإنه لن يقف على خلاف الحق، ولن يجد فيهم الزيغ عنه قيد أنملة، لا لأنّها وظيفة يمارسونها،

---

١ ـ آل عمران: ٣٣.

٢ ـ البقرة: ٢٥٧، المائدة: ١٦.

فالوظائف التي تمارس فيها الأعمال عادة لا بد من الوقوع فيها بالأخطاء، كيفما كان شكل هذه الأخطاء، صغيرة أم كبيرة، خفيفة في ميزان النظر أم ثقيلة، وإنّما هي كينونة، هي حقيقة، و(النبي الإمام) الذي جعله ا مصداقاً لرحمته في الأرض هو (المثال) وهو مركز النزوع الإنساني إلى الكمال، وهو إذاً المصطفى من قبل رب الناس، ليعبر عن نور ا الذي يتحرك في الأرض مجسداً، بعد أن وضعه ا في القلب البشري فطرة، ودارت عليه الأزمنة، فغشيته حالات الصدأ، ولا يركن إلاّ للحقيقة التي تعمل توجيهات هذا الإمام على إظهارها فيه.

هذا المجسد لهذا النور هو قائم في الناس، لا يتغيب، وهذا القيام له تحققات متعددة، سوف نتحدث عنها في مكان لاحق من هذا الكتاب.

نلفت هنا إلى أن (الإمام) الذي يجسد هذه الحقيقة، هو بالضرورة بعد أن فهمنا الاصطفاء غير قابل للخطأ، ومن هنا تنبع أهمية فهم مسألة (العصمة) وعند هذه النقطة لا ينبغي الاختلاف في تفاصيل صغيرة أو كبيرة حول ماهية العصمة، فالمصطفى من ا تعالى، المعبر عن نوره الحامل له كهاد لمخلوقاته، لا مجال لتناوله تناول البشر الذين يحسنون ولا يحسنون، أو يخطئون ويصيبون، فما البشرية عند (الإمام) سوى مظهر ألبسه ا إياه في ثياب الجسد، وهذا ليس

قولاً تعسفياً، إنّما هو واقع حالهم(عليهم السلام).

من هنا كانت لهجة النبي كلّ نبي لا تحمل بين مفرداتها سوى إيقاظ قلب الإنسان من أجل سلامة مصيره، ولو كان لهم مثلما للناس العاديين، لكانت لهجتهم تشبه من يرغب بإنشاء ملك في الدنيا، أو تتنازعه غرائز البشر في الشهوات كافة.

فالراية هي التي دليل النور، يقول فيها الامام علي(عليه السلام): "وخلف فينا راية الحق، من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق"(١)، هي هذه ولا شيء سواها، (راية النبوة) راية هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فمن أراد أن يطفئ نور ا عمل على إخفاض هذه الراية، ومن أراد أن يستنير بنور ا لزمها، لم يتخلف عنها ولم يتقدمها.

وفي هذا المقام يطيب ذكر حديث رسول ا (صلى ا عليه وآله): "من كنت مولاه فعلي مولاه"(٢)، والذي يوجب إيراده هنا، هو وصولنا إلى قرب نهاية القسم الأول من الطريق إلى الامام علي، الذي نوجزه بالتالي:

لقد أجرينا عملية دمج بين (النبوة والرسالة والإمامة) وفق تصور مبني على أنّهم حقيقة واحدة، يفترقون في التسميات ويلتقون في الغايات، ويكون الافتراق مبني على إحدى ضرورات المرحلة التي

---

١ ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ٩٩.

٢ ـ أنظر مسند أحمد: ١١٨/١ (٩٥٠) (٩٦١) (١٣١٠).

تكون البشرية بحاجة إليها فالنبي الهادي والرسول والإمام يقومون جميعاً بإظهار حقيقة النور والعمل على إزاحة الظلمة، وهم إما أن يكونوا موجودين معاً، أو أن يتبادلوا الأوقات، أو يأتي واحد وراء الآخر أو قبله.

وأما حول مصدر هذا الدمج، فإنه بالإضافة إلى ما أوضحه القرآن الكريم حول نبوة ورسالة وإمامة إبراهيم(عليه السلام) فإنه أشار إلى تقلب هذه الحقيقة في الذرية التي بعضها من بعض(١)، وإنّه لما لم يكن ا سبحانه ليفرق بين أحد من رسله، فإن كل رسول بمثابة نبي وإمام وهذا يجري على الإمام والنبي مثلما يجري على الرسول، وعلّة هذا القول بنصوص القرآن الكريم (لا نفرق بين أحد من رسله)(٢) أو قوله (والذين آمنوا با ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم)(٣)، فإذا كان كل رسول هو نبي وإمام كإبراهيم، وهو مقام الصفوة، فإن توريث راية الحق هو شأن من شؤون ا سبحانه، لأن الاصطفاء أمر إلهي لا دخل لأحد فيه، كذلك خيار استمرار الرسالات لا لأحد قدرة على التدخّل فيه، نعم قد يتم التدخل ليس في الإمام، إنّما في طرائق نقل المعارف، أقصد

١ـ ترد تفصيلات هذه الحقيقة في القرآن الكريم في عدد من المواضع، راجع مثلا سورة الحديد الآية ٢٦.

٢ـ البقرة: ٢٨٥.

٣ـ النساء: ١٥٢.

في الوسائل التي يمارسها الناس في نقل العقائد، أما موضوعه الإمام، فهي وفق ما تبين مشمولة بحمل راية الحق، وهي راية الرسل تدفعها إلى أهلها.

والذي يتحقق من وراء ذلك أمور عدة، منها أن ا سبحانه يعلم طبائع بني الإنسان، فإذا غادرهم الهداة، تخبطوا، بين من يلج الظلمة فلا يرجع عنها وبين من يبحث له عمن يثبت قلبه على هداه، وبين من لا تغره الأشياء التي تعصف لا بهؤلاء ولا بأولئك، لكن هذا النوع الثالث نادر ندرة شديدة، بحيث تلتقطه أنفاراً منهم مع كل رسول ونبي وإمام، وتكاد تعدهم دائماً على الأصابع، أما أولئك الذين بين بين فعددهم وفير، وهم بحاجة مستمرة إلى من ينظر في شأن قلبهم ويبقي له سراج النور، وإذا ما نظرنا إلى الذين يلجون في الظلمات أيضاً وجدناهم غير قليل عديدهم.

وبين هذه المراتب الثلاث تخلق عمليات الجدل المستمرة وتدافع الأفكار واختلاق ما يثير استمرار البحث والدأب، ويصعب أو يندر أن تتوقف الحاجة إلى إثارة أمر من أمور الدين أو الدنيا، ولا تنقسم حوله الآراء والأفكار حتى يبلغ مراحل تأخذ بناصية المعارك وتدور بين الناس الحروب جراء الاختلافات، وتهرق الدماء، وهذا معروف في جميع مراحل البشرية.

من هذا المنطلق وسواه، تصبح مسألة إبقاء الرمز المثال (الإمام) في واقع الناس أمر ضروري، فغيابه يفرغ المساحة للفتنة، وإن كان

وجوده لا يلغي مثل هذا الأمر، إنّما في الحد الأدنى هو يخفف من شدة تدميرها وأثرها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نصاب القسط الذي تسعى الرسالات من أجل إبقائه وإقامته، يلزمه دوام ممثل للحق، رافع لرايته، وكثير من الناس من يمثلون حمل هذه الراية، ويخدعون ويمارسون أدواراً تمثيلية على الناس، لمصالح أو أغراض تؤتي منافع أو تشبع حاجة أو تخلّد مأثرة، إنّما الإمام الذي هو شأن إلهي فهذا أمر ينبغي الإضاءة حول معرفته، وقد تولى القرآن الكريم ذلك مثلما تعهدها النبي محمد(صلى ا عليه وآله) وأوصلها إلى البشرية.

بهذا نعرف جوهر المقصود من الآية الشريفة (كتب ا لأغلبن أنا ورسلي)(١) والآية المباركة (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)(٢)، فبقاء الرسائل السماوية من أجل تحقق هدفها في الناس أمر حتمي، ومن أجل إظهار هذا الهدف واقامته في الأرض، فإن الرسل والأنبياء والأئمة لا ينقطعون عن الناس ولا يفارقون حياتهم، كيفما كانوا وأينما كانوا، ولا يعني عدم التزام الناس بأوامر الرسل والهداة، أنّهم لا يقومون فيهم ولا تسري قوة الكلمة الإلهية بين البشر، بل على العكس، لأن نصرة الحق بأية طريقةكانت هي تلبية لغاية العدالة،وهي تعبير عن سريان هذا النور.

---

١ ـ المجادلة: ٢١.

٢ ـ الأنبياء: ١٠٥.

وهنا نقف هنيئة عند جملة (وخلّف فينا راية الحق) التي ترد في حديثه(عليه السلام) وروداً تام الدقة في التعبير عن استمرار الهداة، الذين يشغلون المساحة التي يهدف إليها خط الرسل، وعند التيقن من هذا الأمر أخي القارئ الكريم، سوف تنفرج أمامك سبل معرفة الفرق الجوهري ما بين (الإمام المثال)، وما بين الزعماء والقادة الذين يملكون ويزولون، ويحكمون ويمضون، وليس لآثارهم في عقائد وقلوب الناس ما يمكن أن يدخلهم دائرة الصفوة، التي تؤدي بدورها إلى مفهوم العصمة، والعصمة شأن لا يكتسب اكتساب المعرفة والدراية، إنما خصيصة تدخل في دائرة معرفة ا سبحانه لأولئك الذين اختارهم رسلاً وأئمة، وما هؤلاء سوى بشر رفعهم عن حجب الظلمات وأيدهم بنوره وكلماته.

عند هذه النقطة تنفرط كلمات الإمام علي(عليه السلام) عن سبحة النور، فيفتح أفقاً من آفاق الفيض الرسالي على الذين روّت نفوسهم، وشفت عن جوهر فطرتها، ويخاطب قائلاً:

(فطوبى لذي قلب سليم، أطاع من يهديه، وتجنب من يرديه، وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصره، وطاعة هاد أمره، وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه، واستفتح التوبة، وأماط الحوبة، فقد أقيم على الطريق، وهدي نهج السبيل)(١).

١ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ٢١٤.

القسم الثاني: الطريق إلى علي هو القرآن والنبي

والذي يجعل أمر الهداة منقطعاً إلى الله سبحانه، إضافة إلى ما أوردناه جميعاً، هو بالمقام الأول ما حدث به رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمر به ـ والذي لا تنبغي المواربة فيه أو المحاكمة ـ هو أن كلامه صفو التنزيل، أي: أن كل تقرير أو أمر أمر النبي(صلى الله عليه وآله) الناس أن يأخذوه عنه هو فرض مثلما باقي العبادات، وعلّة هذا قول الله سبحانه: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(١)، فلا جدال في أن مصدر أوامر وتعليمات الرسول(صلى الله عليه وآله) هي من عند الله، والقرآن الكريم مليء بتوكيد هذا ولا حاجة بنا لأن نسرد الكلمات الإلهية التي ترفع شأن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وتجعل من كلماته وحياً يوحى، حتى نحتاج إلى تثبيت أن كلامه هو محض نور، وأن مخالفته هي ليست فقط معصية، وإنما إبطال للأعمال أيضاً إن كان هذا المخالف ينظر إلى نفسه على أنه ممن يتقربون إلى الله بعمل أو عبادة، وعلة هذا قول الله

---

١ ـ الحشر: ٧.

سبحانه (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم)(١).

وفي الربط الناجز بين طاعة الله سبحانه، وبين طاعة رسوله عليه وعلى آله أطيب الصلوات، يمكن للمتأمل أن يلتقي مع علي(عليه السلام)ابتداء قبل أن ينطلق إلى التفصيلات، وعند هذا الالتقاء سوف يجري النظر إلى متابعة الحاجة إليه، بعد أن يغادر النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله)إلى دار مقره، وفيه(عليه السلام) سوف يعرف متابعة طريق الله تعالى مما وراءه، أولئك الهداة الذين سوف يجسدون نور الله من بعد محمد(صلى الله عليه وآله) وعلي(عليه السلام)، لأن الطريق إلى الله بعد ذلك سوف لن يكون في مأمن بالنسبة للسالك عندما يولي وجهه قبلة سواها، أي سوى التي قال رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فيها أنّها سفينة النجاة من ركبها نجى ومن تركها غرق(٢).

وقد فرغنا من أن النور والظلمة هما عنوانا البصيرة والعماء، ووقفنا على أن الإنسان غير الداخل في نور الله مارق عن راية حقه، وأن لهذه الراية حملة، وأن هؤلاء الحملة هم أفرع شجرة النبوة، ومصابيح هذا النور، أئمة الناس وملاذهم ومنجاهم من أي سوء، وإذا بنيت مقاييس دخول الجنة وقبول الطاعة عند الله سبحانه على طاعته وطاعة رسوله، فإن كل مخالفة إيلاج في الظلمة، مفاد قوله

---

١ ـ محمد: ٣٣.

٢ ـ أنظر: مستدرك الحاكم: ٣/٣٦١ (٤٧٧٨)، المعجم الأوسط للطبراني: ٤/١٠ (٥٥٣٦)، وغيرها.

سبحانه: (ومن يعص ا ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا)(١).

فإذا لجأنا إلى أوامر ا في طاعة نبيه الهادي الأعظم للبشرية جمعاء، ثم نظرنا إلى وصايا رسول ا (صلى ا عليه وآله) في أئمة الهدى من ورائه، نكون قد وضعنا نصب أعيننا هنا السؤال التالي: ما معنى (ما آتاكم الرسول فخذوه)(٢)؟

وقبل الإجابة نقول: إن شرط الطاعة العمل، أي لا يكفي أن يقر المرء بقلبه بأنه موافق لما يقوله هاديه، نبيه وإمامه، وإنّما ينبغي تأدية العمل بهذه المعرفة، فالعلم بالشيء بغير القيام به يبقى في حيز القصور ولا يكون له مجال تصديق ما لم يبادر إلى العمل به.

وعدم طاعة ا ورسوله نتيجتها بحسب القوانين القرآنية، هي ما ينحصر في كلامه عز وجلّ في هذه الآية: (ومن يعص ا ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)، ويوازيها القبول والطاعة والعمل بحسب هذا القانون القرآني إثر قوله جلّ جلاله: (ومن يطع ا ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً)(٣).

فا سبحانه الذي اختار أنبياءه ورسله، اختار أئمة الناس إليه معهم، وكلف كل نبي ورسول أبلغ عن رسالته أن يشير إلى الذين

---

١ ـ الأحزاب: ٣٦.

٢ ـ الحشر: ٧.

٣ ـ الأحزاب: ٧١.

يمثلون امتداد هذه الرسالة، وليس من سبيل إلى ذلك بغير أن يتولى سبحانه هذا الأمر.

والمعروف أن الناس تسعى لتولّي أمورها بيد الذي تراه يقدم لهم النفع الآني والمستقبلي ويرغبون بالمناصب والشهرة التي زينتها الدنيا لهم ببهارجها ومفاتنها، وقد عسر على الإنسان الانصياع للسوي، ما لم تقم عليه الحجة التي تجعله أن يتقبل هذا الانصياع.

ولا نقصد بالانصياع هنا، هو التسليم دونما رغبة أو إرادة، لكن المعروف أن شؤون العقائد، هي شؤون في غاية التعقيد، وأن استبدال عقيدة بغيرها بالنسبة للبشر ـ خاصة فيما يميل باتجاه الدين ـ مسألة تسفك من أجلها الدماء قبل أن تقف على أقدامها، لذلك كان ا اللطيف بعباده سبحانه، قد ترك الناس على فطرة تسوقهم إلى الهداية، رغم صراعهم الذي لا يهدأ معها، إلاّ أن العديد من آياته عز وجلّ تشير إلى أن الرسل والدعاة المجتبين ـ لهم وظيفة التذكير والتبشير وإنذار الناس بعدهم، أي بعد أن يستيقظ فيهم ملمح الاستجابة للنداء الداخلي الفطري الذي يكشف لهم حجب الظلمات، ويريهم مثالهم ورجاءهم، لا ينبغي لهم أن يغفلوا بعد ذلك عنه، فهم إن غفلوا بعد ذلك، فالوعيد والإنذار موجود بوفرة في القرآن الكريم.

وعن التذكير الذي تلهج به آيات ا سبحانه، يطيب لنا ذكر نفحة

هنا، تكون في مقام الاعتراف بفضله سبحانه على الأمم، وبالشكر له لما تفضل بإرسال رحمته التي وسعت كل شي ببعث محمد(صلى ا عليه وآله): (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)(١) فالرحمة الإلهية المتجسدة بإرسال محمد(صلى ا عليه وآله) قد أفاضت على الناس ما يزيل عنهم ظلمات النسيان، أو بحسب تعبير علي(عليه السلام): "أن محمداً رسول ا المجتبى من خلائقه، والمعتام لشرح حقائقه، والمختص بعقائل كراماته، والمصطفى لكرائم رسالاته، والموضحة به أشراط الهدى، والمجلو به غربيب العمى"(٢).

فإذا تبين لنا أن ا سبحانه يختار الهداة من أنبياء ورسل وأئمة، وعرفنا أنه بعد أن تقوم البينة على الناس في (النبي الرسول الإمام)، بعون ا ومساعدته للناس والرسل معاً، نقف بعد ذلك على أن الحقيقة النبوية المحمدية قد استمدت عظمتها من عظمة خالقها، فأبانت للناس طرق الوصول إلى غاياتها، وعرفتهم كيف يكون الطريق إلى النجاة من مهاوي الردى، وبعد ذلك ينتصب الحق الإلهي الذي أظهر للناس بفضل وعون ا سبحانه، فيكون العباد الذين سوف ترث الأرض والغلبة لما يقوله سبحانه.

ولدينا هنا وقفة وهي أن هذه المعرفة التي تنبغي للهادي على

١ـ الأنبياء: ١٠٧.

٢ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ١٧٨، المعتام: المختار لبيان حقائق التوحيد والتنزيه، غربيب الشيء: أشد سواداً، غربيب العمى: أشد الضلال والظلمة.

الناس، تواجه دائماً صعاباً لا تلين مع الدهر، لأنها ضد الوساوس الشيطانية، فلكلّ حق مشهد، ولكلّ باطل وتد، وعلى مدار الأزمنة ما تزال مصارعات الحق والباطل بدون هوادة، من هنا كان لا بد من تذكرة باستمرار، وقد قال سبحانه لرسله أن يذكروا، فماذا يجب أن نتذكر نحن بني البشر! أنتذكر ميثاق ا الذي أخذه علينا (ألست بربكم)(١)؟ أم نتذكر أن ا سبحانه لما خلق آدم علّمه الأسماء كلّها، وأن أبناءه نسوها، فعليهم أن يتذكروا كيما يكفوا الظلم، ويقوم الناس بالقسط؟ أم نتذكر أن ا سبحانه أرانا الحق بتوالي الرسالات، وختمها بنبي الرحمة وأيده بأوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟

لعلّ القول القرآني في التذكير يشتمل على جميع هذه الأمور التي ينساها المرء، فهو بحاجة ماسة إلى هاد، لأنه سبحانه لن يرضى عن أحد في شي سخط به على سواه، يقول الإمام علي(عليه السلام): "واعلموا أنه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم، ولن يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم، وإنّما تسيرون في إثر بين، وتتكلمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم، قد كفاكم مؤونة دنياكم، وحثكم على الشكر، وافترض في ألسنتكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى، وجعلها منتهى رضاه، وحاجته من خلقه، فاتقوا ا الذي أنتم بعينه، ونواصيكم

---

١ ـ الأعراف: ١٧٢.

بيده، وتقلبكم في قبضته، إن أسررتم علمه، وإن أعلنتم كتبه... واعلموا أنه (من يتق الله يجعل له مخرجاً)(١) من الفتن، ونوراً من الظلم"(٢).

على هذا تكون السنة الإلهية في الناس، أنّه لا يرضى على أحد في شيء سخطه به على سواه ويقابلها عكسها، فعندما تترى الأنبياء، ويكون الهداة والأئمة في الناس بصورة مستمرة، فإن الرسول الكريم محمد(صلى الله عليه وآله) بما هو المشرع باسم الله تعالى، وبما هو الإمام الأكبر للبشرية، شاءت أم أبت، وبما أنّه المعبر الأسمى عن التطلّع الإنساني نحو الخلاص من أية نقيصة واستثمار كل كمال، فإنه لم يتوان عن إعلان كلمة الله تعالى في تذكير الناس بإمامهم الواقعي من بعده ـ ونقول الواقعي هنا في مقابل ما يمكن أن يتوهمه الناس من الزعماء الذين تمكنهم الظروف من اعتلاء منابر السلطة، ويعملون على إطفاء نور الله، بقصد أو بغير قصد، ويتصورون أنهم هم أئمتهم فينحرفون عن سبل فطرتهم ونور قلوبهم، وسبل ربهم، لذلك كان من الضروري بداهة أن يسمي النبي محمد الأئمة في الناس، ويمهد لهم الطرق للتعرف عليهم ـ فأتت أحاديثه(صلى الله عليه وآله)، بما ينطق من وحي لتعبر عن المتّجه، وتفوت الفرص على خطوط التيه، ومنها قوله الأكثر

---

١ ـ الطلاق: ٢.

٢ ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣.

تعبيراً عما نحن بصدده: "ألا من كنت مولاه، فهذا علي مولاه"(١).

وفي عطف هذا النص النبوي على نصوص القرآن الكريم التي منها (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)(٢)، نقف على الاستنتاج التالي:

إن ا سبحانه هو صاحب السلطة المطلقة على عباده في جميع شؤونهم وفي مختلف ظروفهم، وليس لأحد عليه من فضل أو سلطان، وهو تعالى القاهر فوق عباده وهو ناصرهم ومخلصهم ومالك مصائرهم، بلا إشكال، وهو سبحانه يؤتي الملك لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء، وقد تفضل ببعث الرسل من أجل إقامة الحق وإزهاق الباطل الذي أخذت الناس سبلها إليه، وقد انفرد بتولي مالكيته للكل بدون استثناء، وهو بهذا اللحاظ أفاض على نبيه برتبة الولاية على الناس عند قوله هذا، لا لأن ذلك يضر بمصالحهم وسلوكهم، بل ليعبر يقيناً عن الغاية من إيجادهم، وعليهم أن ترتقي معارفهم حتى تدرك هذا اليقين.

وليس هذا من قبيل القهر وفرض السلطان بقوة جبروته سبحانه، وإنما عن طريق إقامة الحجة، وثباتها في قلوب الخلائق، لذلك نجد أن حب الناس لمحمد(صلى ا عليه وآله) وإيثارهم له على أنفسهم وذويهم

١ـ أنظر مسند أحمد: ١١٨/١ (٩٥٠) (٩٦١) (١٣١٠).

٢ـ الأحزاب: ٦.

وهجرتهم معه وإيمانهم الذي فجر في الأرض مرابع الحكمة والدين، لم يكن بالدرجة الأولى منبعه الخوف منه، حاشاه، بل كانت محبته هي السائق إلى توجه المؤمنين اليه وتصاعد لهجة الحب له، وانتشار دينه وذيوعه في الأرض، وما يرى من محاولات لإطفاء نوره منذ بواكير دعوته، إلاّ وهي رجس من أعمال الشياطين، ما تزال تقوم وتقعد جيلاً بعد آخر، لكنّها لا تقدر على طمس دافعية الحب، التي نعبر عنها بسلامة الفطرة، والتي هي في مقام النور، وكل ما سواها لا يعبر إلاّ عن الظلمات.

إن جميع هذه القرائن تؤكّد أمراً هاماً هو من أساسيات أبحاثنا هنا، مفاده أن ا سبحانه قد بثّ بين أنوار آيات كتابه ما يجعل المطلع يفهم أن الإمامة خصيصة يجعلها ا لنماذج يصطفيها من خلائقه ليس لأحد عليها من سلطان، ومن أجل توضيحها يجريها على السنة المبشرين، فمثلما يخبرنا رسول ا (صلى ا عليه وآله) بلقاء ا تعالى وحلاله وحرامه ورضاه وغضبه، يخبرنا أيضاً كيف نتلمس الهدي من بعده.

ولعمري أنه لكبيرة أن يفهم أو ينتشر بين البشر شي مخالف لهذا، لأسباب عدة أهمها، أنه رسول ا وخاتم النبيين لم يفرط في شيء من حقوق ا تعالى وحقوق الناس، كي يغمط هذا الحق ويبهمه علينا، وهو الذي أُرسل رحمة للعالمين، فكيف بأصحابه، وأمته؟!

ودعونا ننجز نهاية القسم الثاني، في دلالة القرآن والنبي(صلى ا عليه وآله) على الإمامة المطلقة لآل البيت، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب(عليه السلام).

بعد أن نقرأ قوله تعالى: (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة)(١) الذي يحسم لهم مسألة الخيار في الأمور التي هي من شأنه سبحانه، ومنها الخلق واصطفاء الأنبياء والرسل، كذلك في الأمور التي هي من مقتضيات حكمته التي لا يعلمها سواه ومن اختار من رسله، التي تشير إليها، الآية الكريمة: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى ا ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)(٢).

وبعد كل ما مر وبعد أن وصلت الأُمور إلى هذه النقطة نقول: إذا كان رب العزة قد حسم الأُمور التي يقضيها في مصلحة الناس لجهته وحصرها به وبرسوله محمد(صلى ا عليه وآله)، هل تجد ثمة مبرر لتبديل هذا القول أو تأويله، أو تحريره بخلاف ما يشير به هو إلى نفسه؟ وبعد ذلك كيف يمكن أن نحصل على اليقين، إن لم نتمكن من فهم هذا التصريح الإلهي فهماً كاملا، مع أنّه لا يخفى على البسيط الذي نال قسطاً من المعرفة، فضلا عن العالم أو ذي اللب، بأن ا سبحانه قرن في قضاءآت رسوله قرينة قضاءاته في أمور المؤمنين والمؤمنات.

وبذلك نحصل على نتيجة أخيرة مفادها أن ا تعالى قضى لهذه

---

١ ـ القصص: ٦٨.

٢ ـ الأحزاب: ٣٦.

الأمة أن يكون علياً(عليه السلام) إمامها الذي هو في مقام نبيها في الناس بعده، وهذه فيها خصلتان:

أولهما:

يجب أن لا نعتقد لبرهة بأن الإمام علي(عليه السلام) كان في عصر المبعث المحمدي الشريف قد خلق صدفة، حتى يفهم وكأنه غلام من عامة الناس، صادف أنه ابن عم النبي وهو في سن مبكرة من العمر، فاختاره لنفسه لهذه الميزة، وأخذ على كاهله شأن تربيته وتأهيله حتى بلغ هذه الرتبة، لما في هذا الفهم من سذاجة! ومكمن هذه السذاجة في أنه لو لم يكن هنالك هذا الغلام لكان سواه من فتيان قريش، وهذا غير وارد في زعمنا، لأن المقام الذي يشغله الرسول والنبي والإمام لا يكون صدفة، أي لا يكون انتخاب لا على التعيين، بل أن هنالك صفوة، هنالك حكمة إلهية من وراء هذه الصفوة.

ودليلها: إنّه جعلها في ذرية بعضها من بعض، وأكدها مراراً في القرآن الكريم، مثلما أكدتها سنة النبي الكريم، ولو لم يكن الأمر هكذا، لما لزم هذا التأكيد ولا كان هنالك مبرر لاختيار ا تعالى أشخاصاً بعينهم وإجراء ابتلائه فيهم، ثم إتمام نعمته عليهم وإعطاءهم شرف (المثال) الذي تلهج وراءه النفس الإنسانية كما تقدم. إنّما كان الإمام علي(عليه السلام) من ضمن هذه الصفوة، وهو وليد الكعبة المشرفة، وجميع الشروط التي رافقت حياته تفيد أنه لو لم

يكن هو، لما كان لأحد سواه هذه المنزلة.

ونحن هنا لسنا بصدد اقالة المدائح بمقدار ما نحن نُعمل الحكمة والتحقق في طبيعة مسألة الإمامة، مع أنّه بحسب ما أورده ابن حنبل (ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحيحة مثل ما لعلي)(١)، أو قوله: (إن ابن أبي طالب لا يقاس به أحد)(٢)، والحق أنه لا يقاس به أحد، لأنه من الآل اختارهم ا ورسوله ليقوموا في الناس، وما كان لأحد أن يختارهم، أو يخالف هذا القرار الإلهي.

وثانيهما:

في التفريق بين الإمام الذي هو هادي الناس ومخرجهم من الظلمات إلى النور بكلمات ربه، وبين شتّى أصناف الرئاسة والزعامة التي سبقت إليها الإشارة، يجب أن نطمئن بأن أوامر الإمام الهادي ونواهيه هي امتداد لأوامر ا ورسوله ونواهيه، وهذا الاطمئنان لا يتأت بمجرد استعراض شجاعته أو قرابته من رسول ا (صلى ا عليه وآله)، أو وقوفه إلى جوار نصرته، وإن كانت جميعها تضيف اليقين إلى اليقين إذ أن الجبان، وغير الناصر لا يكونان فيمن هو إمام الناس الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور.

وإنّما هو إمام بما يسوق الناس إلى منتهاهم الذي يتوفر لهم في

١ـ مناقب أحمد بن حنبل، ابن الجوزي ص١٦٢ وما بعدها، طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى: ٣١٩/١، كذا الينابيع: ٦٨/٢ ـ ٢٩٧/٢.

٢ـ المصدر نفسه: ص١٦.

سبيل النعيم بحسب الرسالات السماوية، وبهذا يجب أن تستحوذ جميع الشرائط شخصيته حتى يكون حجة ا تعالى على الناس، وعلى المتفكر في إمامة علي(عليه السلام) أن يقرأ الآن هذا الكلام له (عليه السلام):

يقول: "أيها الناس! إني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بها أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم"(١).

هكذا تشتمل الإمامة على النبوة والرسالة، وهكذا يدفع ا الباطل بالحق، حين يقول: (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(٢)، فإذا كان رسول ا (صلى ا عليه وآله)يؤتي الناس الحكمة، ويهديهم إلى جادة الصواب، ويرسم لهم سبل استمرارهم في طريق النور والهداية، بإعلان ولاية أمر الناس من بعده لعلي(عليه السلام)، فإن المؤمنين والمؤمنات هنا عند هذا القضاء النبوي المبارك، الذي هو غير منفصل عن القضاء الإلهي، ليس لهم الخيرة من امرهم، وبالتالي يمكن أن يقال بأن التزام إمامته(عليه السلام) هو خضوع لقضاء ا ورسوله، وأن عدم الالتزام بهذا الأمر هو خروج من هذه الدائرة، وهذه النتيجة تؤيدها تصرفات ومواقف الإمام علي(عليه السلام) بين الناس بعد رسول ا (صلى ا عليه وآله).

فأهل البيت ورأسهم علي(عليه السلام)، نجرؤ هنا على القول بأن

---

١ ـ أنظر: نهج البلاغة: خطبة ١٨٢.

٢ ـ الحشر: ٧.

جميعهم متساوون من جهة الإمامة، فالاثنى عشر إماماً الذين يتحدث لنا عنهم رسول ا (صلى ا عليه وآله)، هم ولاة المؤمنين، ومن لم يتولهم لا ينقصهم في شيء من الشرف، ولا ينقص من قضاء ا ورسوله فيهم من شيء، ومن منا يستطيع أن يتخيل مجرد جولة من الخيال أن ا ورسوله لا يريدون بنا الخير، يكون قد أخطأ قلبه، وخرجت عن المحجة قدمه، وعليه أن يستفيق من عتمة الظلمة، ويستهدي بنور الحق ورايته، لأن الذي ينطبق من الإمامة على علي بن أبي طالب(عليه السلام)، إنّما ينطبق بذات المقدرة على الأئمة الذين انحدروا من ولده بعده، لعلّة إخبار رسول ا (صلى ا عليه وآله) أولا عن ذلك الناطق بلسان الحق المورث لرايته، ولعله انطباق المصداق عليهم من خلال استقرار سيرتهم، والتعرف على علمهم وما أفاضوا على المؤمنين من فضائل رب الناس سبحانه وبركاته، وقد ترك في الناس أثرهم وعلى المحتاج إلى رحمة ربه ونوره أن يقتفي هذا الأثر، وأن يستنهض همة قلبه كي يدرك معنى (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)(١).

وثمة قبل الخروج من هذا المبحث السؤال التالي:

---

١ ـ أنظر وسائل الشيعة للحر العاملي: ٢٤٦/١٦ (٢١٤٧٥)، وورد كما في صحيح مسلم ومسند أحمد ومعجم الطبراني: (من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية) و(من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).

إذا كان ا سبحانه يأمرنا أن لا نخالف ما يأتي به الرسول(صلى ا عليه وآله) إلينا، ما يلقّنا إياه وما يأمرنا به، وما ينهانا عنه، فكيف لنا أن نتعرف على جميع ما أمرنا به، وأنه كما يعلم الناس، قد نشب خلاف في تناول حديثه وروايته بين المسلمين، ابتداء من عصر وفاته عليه وعلى آله السلام؟!

ونحن محكومون بالالتزام بطاعة ا وطاعته، والذي لا نشك فيه أن ا سبحانه يخبرنا بهذه الآية، أنّه حفظ الرسول(صلى ا عليه وآله) في الناس، لذلك هو يجريها على لسان الكتاب، بمعنى أن ا لا يأمرنا بشيء ولا يكون لهذا الشيء من تحقق، فينبغي أن نفهم أن جميع ما أتى به الرسول إلينا متوفر بين الناس إلى قيام الساعة، وهذا المتوفر لا يحظى به بدون تدبر وتفكّر، وهذه ليست بدعة، فإذا كان القرآن الكريم الذي هو دستور المسلم، لا يمكن إدراك كنه آياته بدون تدبر وتفكر، فكيف ورسول ا (صلى ا عليه وآله) مثله لا ينطق إلاّ بوحي؟!

إذن المسألة ليست في مكان القرابة! إن هذه الآية الشريفة تلفت أنظارنا إلى أن ما أتانا الرسول(صلى ا عليه وآله) والذي نؤمر من قبل ا تعالى بالأخذ به، هو متوفر، لكنه يحتاج إلى تدبر كحاجة الناس إلى تدبر القرآن، وأنّه لم يختف كلية عن الناس، وإنّما هو في مقام النور الذي يجب أن يخرج الإنسان بسعيه نحوه قلبه من ظلمات الضلال ويدخله في شرائح النور،هنالك سوف يلقى إمامه،الذي يسلمه

تفاصيل الأخذ عن رسول ا (صلى ا عليه وآله)، وينهاه عن منتهياته.

ويطيب لي أن أختم هذا القسم بحديث يروى عن هاد من هداة آل محمد(صلى ا عليه وآله)يقول: (لا يكون العبد مؤمناً حتى يعرف ا ورسوله والأئمة كلهم، وإمام زمانه، ويرد إليه ويسلّم عليه، ويسلّم له، ثم قال: كيف يعرفُ الآخر وهو يجهل الأول؟...)(١).

١ ـ أنظر: الكافي للكليني: ١/١٨٠.

القسم الثالث: الطريق إلى علي بعلي

في القسمين الذين أُنجزا بحثنا عن معرفته(عليه السلام) من خلال الاستنتاج والاستدلال، ومن خلال كلام ا سبحانه وكلام رسوله(صلى ا عليه وآله)، وصلنا إلى أن ا سبحانه قد أجرى في الناس سنته، وليس لأحد أن ينازع ا سنته، وقضاء رسوله قضاءهما، فما لمؤمن أو مؤمنة أن يختار.

وبذلك تبين لنا أن الرعاية الإلهية قد حفت أمة محمد(صلى ا عليه وآله) بإعلان إمامة علي(عليه السلام)في الناس، استمراراً لهدى ا تعالى وإبقاء لنوره، وأن من عمل على إطفاء هذا النور خبا وذهب في متردیات الظلمة، ومن شرح ا صدره لهداه، أخذ بناصية فؤاده، وساقه من حيث يستقر الإيمان في قلبه، ويرد على حبيبه المصطفى يوم لا ينفع مال ولا بنون وقلبه مشتعل رغبة وحباً وأمان، فهو على حوض المختار، يسقى مياه أهل الجنة، ويتراقص في نفسه النور فيجاب الخير لها، فقد انكشفت أساريره عن هدي محمد باعتناق الإسلام، وذاب قلبه

ولعاً با   ورسوله(صلى ا   عليه وآله)، فآثر ولاية علي على خلائق ا   في الأرض، فكانت راحة علي(عليه السلام) في ذاك المقام هي التي تفصل ما بينه وبين نار جهنم التي أعدها ا   للظالمي أنفسهم.

ونحن هنا سوف نقصد الطريق نحوه(عليه السلام)، من خلال كلماته التي أرسلها منذ ذاك العهد في الناس، وما تزال تسري في دياجي الظلمات تكشفها، وتضيء جنبات الكون، لكن الذي لم يمكّنه ا   تعالى من إدراكها لم ينل حظه من العيش معه بعد، ونسأله جلّ جلاله، أن يقيض لجميع أمة محمد(صلى ا   عليه وآله) وللبشرية أن تنفتح عيونها على هديه، وتستلهم خلاصها منه، فإنّه كما قال رسول ا   (صلى ا   عليه وآله): "لا يدخلها في باطل، ولا يخرجها من حق"، بل أنّه فاتح آفاق الأنفس على كوامنها، ورافع نور ا   فوق كلّ ظلمة بمن منه سبحانه، لا بسواه.

والذي يدعو إلى التأني والتأمل في استعراض كلامه، ليس البلاغة التي يتمتع بها كما يتصور البعض، فما كان ليدركه النقص(عليه السلام)، وحتى يبحث عن الكمال، فالبلاغة ليست فضيلة أو إضافة إلى إمامته، بل إنها من مقتضياتها، بذلك نحن وإن راعنا جمال أسلوبه، وأخذ بلباب أفئدتنا حسن تناوله للمفردات، لكن هذه ليس بذاتها الهدف من الاستدلال عليه بكلماته، وإنّما الهدف فوق ذلك، إنه استلهام نوره من أجل إزاحة ظلمات علَتْ الأفئدة، وكذلك استدراك

طريق تراكمت فوقه غبار التزييف والتحريض، وانتضاء حق يشعل مصباحه إلتفاته.

بهذا نحن نقف قليلا مع ما يذكره عن أهل البيت الذين يدور معهم في فلك محمد(صلى ا عليه وآله)وينسج معهم على منواله، فيأخذ منهم ويعطيهم، ويتبادل معهم سرائر الكون، ويكشف للناس خبايا مستقرهم ومستودعهم، وطرائق عيشهم وسعادة أوقاتهم، مثلما يزجرهم ويردعهم عندما ينظر فيراهم على غير الجادة، لعمري كدفع الوالد ولده على اتيان حياض اللذة غير النافعة، وعدله إلى طرقات الفوز والخلود.

كفاية الإمام

من المعروف في جميع الأوضاع أن صاحب الحاجة يذهب نحو من لديه هذه الحاجة فيطلبها، وإن كانت هذه القاعدة في شؤون الدين أقل تحققاً، فالمعروف أن الرسل لا حاجة لهم في الناس، بل للناس حاجة إليهم، يهبطون إليهم ليبلغوهم رسالات ربهم، وكذلك الإمام، فإنه ينطلق في الناس معبراً عن حاجاتهم، رغم أنهم هم الذين في الواقع يحتاجون إليه.

وفي الكثير من الأحيان يتعرض (المثال) إلى هجمة من قبل أعداء النفس، بأي شكل من الاشكال، بقصد البغي في الناس،

وإزاحة الحق وإحلال الباطل، هذه خصلة موجودة بين بني البشر غير مستنكرة، فا سبحانه خاق الإنسان منذ آدم وفيه خاصية الجدل، والتعبير عن الذي يريده بما لا يريد أحياناً، فقد يدعو بالخير دعاؤه بالشر، لكن هذا ليس لأنه يرغب ويريد الشر، إنّما لجهل فيه، أو لعدم إعمال العقل بالشكل الأليق، أو مثلما يقولون قد يترك الأولى، أحياناً عن قصد، وأحياناً عن غيره.

فقد يجتمع الناس على إمامهم، ثم ينقلبون، وتأخذهم نوازع الشياطين ولا يدرون بعد ذلك مصيرهم، فيخطؤون ويسيئون لأنفسهم، ومنهم من يتوب عن ذلك، ومنهم من تأخذه الحمية، حمية الجاهلية، فيسقط في امتحان الخلاص، ويدخل شرك الضلال.

ويوجد في كلام الإمام مثل هذا التعبير عندما يذكر الناس الذين اجمعوا على قتاله(عليه السلام) مثلما أجمعوا على رسول ا (صلى ا عليه وآله)(١)، لكن ثوب الإمامة الذي حباه الباري عز وجلّ به ينطق لسانه بقوله: "لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة"(٢).

وقد آثر الناس مخالفة طبائع الحق، ليس عن قصد في الغالب، وإنّما عن عدم خضوع، إما لكبر في النفوس، وإما عن مراودة الشهوات، ولو لم يكن ذلك لوجدنا الحق يجري فيهم مجرى التنفس

١ـ أنظر بهذا الصدد: الخطبة (١٧٢) من ترتيب خطب نهج البلاغة.

٢ـ أنظر: نهج البلاغة: كتاب ٣٦.

منذ خلق ا   الناس، وما من حاجة إذن لترادف المرسلين، ولا من حاجة لقيام الأئمة فيهم، لكن لما كانت الجبلة البشرية تأخذها منازعات وميولات، كان من الطبيعي أن تستغرق في ظلماتها، ما لم يردفها رب الناس بمن يذكّرها، ويحنو عليها بالإمام، وهو الرؤوف الرحيم بكل شيء أبدع خلقه وناوله حظه في العيش، على أن يلج مدارك كماله، أو ينحاز إلى مجارات مراتب الضلال فيأوي مع من آوى إلى المصير البائس، والعيش الضنك، إلاّ أن يشرق نور ا   في حناياه، وما من أمة أو قوم، إلاّ ويقوم فيها من يلتفت إليه لو استيقظ القلب، وما أن تحدث يقظته حتى يؤتى الحكمة، والفضل العظيم، فيعرف إمامه، روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) قوله عندما سئل عن الحكمة التي أوتيها لقمان، فقال: "لقد أوتي معرفة إمام زمانه"(١).

اللهم اجعل القلب لا يفتقد نورك، وامنن عليه بلطف منك، أدخله مداخل النور عن بصيرة وأبعد عنه ظلمات العمى، وتغمده بوافر منك، واجعل له في معرفة إمامه من لدنك سبيلا، لأن هذا لا ينال إذا انقطع حبل رحمتك، وغابت عن العناية به آيات فضلك، ومن يبتغ غير ذلك السبيل، فإنه لن يجد له ولياً مرشداً.

إن معرفة الطريق إلى علي(عليه السلام)، يلازمها المزيد من الانفتاح على أبواب الحكمة،ليس لغيابه أولصعوبة معرفته،حاشاه فهو الذي لا

---

١ ـ أنظر: تفسير القمي: ١٣٨/٢.

يفارق القرآن، ولا يشتبه في أنه ميزان الفصل بين النفاق والإيمان، لقوله(عليه السلام): "أنا قسيم النار"(١)، ولقول رسول ا (صلى ا عليه وآله) فيه: "يا علي لا يحبك إلاّ مؤمن، ولا يبغضك إلاّ منافق"(٢)، وإنما لكثرة ما يعمل على اخفاء الحق، واشهار الباطل.

وكما قلنا، ذاك شيء في طبائع الناس، ولولا ذلك لما احتجنا لتكرار الرسل وتواترتهم، وقيام الهداة واستمرارهم، وهنا نقول:

إن الطريق الذي يفتح منه لنا باباً على الحق، ينقسم بحسب هذا المبحث إلى عدة أقسام.

ونبدأ القسم الأول بالكيفية التي ينظر فيها الإمام علي(عليه السلام) إلى نفسه، وكيف ينقل لنا وسائل التعرف عليه، والتماس هداه.

وسنلج في كلماته التي حملتها إلينا الأسفار عبر التاريخ، ومنها سوف نلحظ مشهد الحق ونعاينه، ونطرق باب النور، فينفرج ما بين قلوبنا وبينه ما يجعل قلوبنا تطمئن بذكر ا تعالى، وتخشع رغبة في حنوه.

ننظر هنا إلى كلماته يخاطب فيها الناس، وهو قائم مقام رسول ا (صلى ا عليه وآله) يعلمهم ويعظهم ويميل إليهم بارتياد ثوب النجاة من الفتن،

---

١ ـ أنظر: ينابيع المودة للقندوزي: ٩٠/١، النهاية لابن الأثير: مادة (قسم)، بصائر الدرجات للصفار: ١٩١.

٢ ـ أنظر: ربيع الأبرار للزمخشري: ٤٨٨/١، كشف الخفاء للعجلوني: ٣٥٠/٢ (٣١٨٠) نقلا عن مسلم والترمذي والنسائي، وغيرهم.

ولايترك مطرحاً إلاّ وشغله بإلفاتهم إلى نورا تعالى يقول: "وا ما أسمعكم الرسول شيئاً إلاّ وها أنا ذا اليوم مسمعكموه... ولا شقت لهم الأبصار، ولا جعلت لهم الأفئدة في ذلك الأوان، وقد أعطيتم مثلها في هذا الزمان"(١).

لن يحتاج المتأمل في هذه الكلمات إلى مزيد تدبر، كي تنكشف عليه حقيقة ما يؤديه، فعلي(عليه السلام) الذي ما أقسم با إلاّ صادقاً، يقول للناس: إن المسافة التي تفصلكم عن آبائكم الذين كانوا عندما بعث ا نبيه(صلى ا عليه وآله) يغرقون في متاهات الضلال، ليست بمسافة بعيدة، "ما أنتم اليوم من يوم كنتم في أصلابهم ببعيد"(٢)، وأن رسول ا (صلى ا عليه وآله) قام فيهم، فأزاح عنهم ظلمة الضلال، وأضاء قلوبهم بنور ربه وكلماته، وانني الآن أقوم فيكم ذات المقام، وأودي رسالته، اسمعكم ما أسمع النبي آباءكم، وأكشف عن بصائركم.

والذي يجرؤ على قول كهذا، لا يسعه أن يكون مدعياً، وهو على رأس أمم من صحابة نبي ا (صلى ا عليه وآله)! كذلك لا يسع المدعي أن ينفرد بإتيان الناس مذكّراً ما كان عليه آباؤهم من جاهلية، ومنفراً إلى ا ورسوله بمثل ما نقرأ عن علي(عليه السلام).

لكن الإمام هنا، يؤكّد الإشارة إلى أنّه حامل راية الحق، التي

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ٨٨.

٢ ـ المصدر نفسه.

تتوارثها الأنبياء والرسل وعند غيابهم تكون في يد الأئمة الهداة، والإمام علي(عليه السلام) يبين دائماً بأن آل محمد في زمن الإسلام هم حملة هذه الراية، فيقول:

"لا يقاس بآل محمد(عليهم السلام) من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة"(١).

دعونا ننظر هنا في الكيفية التي يعرف فيها الإمام علي(عليه السلام) بآل محمد، وبالطبع هو قطبهم، إنه يشير إلى إمامتهم للناس، ليس تلميحاً، بل مثلما قال فيهم رسول ا (صلى ا عليه وآله) تصريحاً "لا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه"، ا سبحانه يتفضل على الناس بأنه أنعم عليهم بمحمد(صلى ا عليه وآله)، ويجري فضله في آل رسول ا (صلى ا عليه وآله)، وان الذي يتحدث هو الإمام كاشفاً عن القلوب أغطيتها، يرسل كلامه في الناس، منذ تحدث إلى يوم يبعثون وقد حفظ ا كلامه هنا للناس، على الرغم من أن الأزمنة تدور على الدول، ولما لم تكن للإمام دولة، بل كانت روح الهداية، فقد انزاحت الدول وبقي نور ا يسري في فلوات الأزمنة.

---

١ ـ المصدر نفسه: خطبة ٢.

وهنا مكمن الفرق، بين الإمامة وأصناف الزعامات التي تحدثت عنها في أماكن مختلفة في أنحاء هذا الكتاب.

والذي يجاهر بإمامته للناس وفق هذا المفهوم، ليس أحد غير محمول عليه تخليصهم من فتن الدنيا، بل على كاهله حمل هذا، لأنّه هو المعبر عياناً عن حقيقته.

ونعتقد أن الإمام في سياق تناوله للتعريف بنفسه، لا يقول هذا إلاّ إذا كان للحديث موجب، وهذا الموجب هو لكل من يأتي من بعد هؤلاء القوم الذين لا يجهلونه، وإنما تقودهم عنه أمور الدنيا التي تحول بين المرء وربه.

فلا يظن أحد أن الإمام علي(عليه السلام) يتحدث في تينك الأزمنة، كي يقف الناس على مكانته، وإنّما يتحدث كي تسير في الناس حقيقته، التي يريد أهل الضلال اطفاء نور ا تعالى بأفواههم، إذ عملوا على اخفائها، لكن ا سبحانه يأبى إلاّ أن يتم نوره، فينطق أثر ذلك(عليه السلام)، دافعاً الشبهات مقيماً للحق، يقول:

"فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت منهم موتاً، ولو قد فقدتموني ونزلت

بكم كرائه الأمور، وحوازب الخطوب"(١).

إن الذي يدعو الإنسان إلى التفكّر في كلام الإمام، ليس البحث عن أحقيته بالخلافة مثلما يظن، أو عند انزاله الزعيم في الناس، لكن الأمر مختلف، فالذي أنجزه محمد(صلى ا عليه وآله) من تركيز وترسيخ لمجمل رسالات ا تعالى، واجتماع الأديان كلها دائرة الدين الإسلامي، وإقامة البينة التي ختم ا تعالى فيها جميع الأديان، لهي التي تلفت نظر الإنسان إلى الذي يبوح به الإمام علي(عليه السلام).

فهو العارف بكل شيء "علمني رسول ا ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب"(١) وهو الذي عرف خفايا الكرامات التي استودعها ا أهلها، فهو من رسول ا (صلى ا عليه وآله) "كالصنو من الصنو، والذراع من العضد"(٢).

وهو العارف الذي لا يخفي معرفته عن مأموميه بخاصة في شؤون حياتهم، وإذا رغب الإنسان منا في الإطلاع على الكيفية التي يتعامل فيها الإمام علي(عليه السلام) مع الحياة الدنيا، فإنه سوف يقف على كون من المعارف لا تطال أطرافه همة، ولا تصله عزيمة.

لننظر هنا على سبيل المثال طريقته(عليه السلام) في التعامل مع الدنيا، وفي

---

١ ـ أنظر: دلائل الإمامة لابن جرير الطبري: ٢٣٥، البحار للمجلسي: ٦٧٢/٣٠.

٢ ـ نهج البلاغة: كتاب ٤٥.

تعليم الناس الكيفية التي تنبغي فيها التعامل معها.

علي(عليه السلام) والكشف عن الحياة الدنيا

ما نزال نجري تأملاتنا في ما أعطاناه أمير المؤمنين من مفاتيح الدخول إلى عوالم هديه والتعرف عليه.

فإذا سأل سائل عن الإكثار من متابعة كلماته.

فإن الإجابة تكون: إنّه بها وبكلام نبينا ووحي ربنا نعرف الطريق إلى نور ا ، ونعرف الطريق إلى مصداق الإمامة التي هي المنجاة، والملاذ، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية فإن الذي يقودنا إلى هذا الأمر، هي ألوان التقريب والتأخير في تناول أوضاع العيش، من لدن معلم رفع رسول ا (صلى ا عليه وآله) شأنه عند قوله: "أنا مدينة العلم وعلي بابها"(١)، وعلى موازين الصراط تشهد الحقيقة انسيالها، ويتأهب لها المرء في الحياة الدنيا، وهي بحسب المعلم الإمام "دار أولها عناء، وآخرها فناء، في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن تعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته"(٢).

١ـ أنظر أمالي الصدوق: ٤٢٥ (٥٦٠)، تاريخ ابن عساكر: ٣٧٩/٤٢.

٢ـ نهج البلاغة: خطبة ٨١.

يحسن أن يبحث القارىء في أطراف الكتب عن سيرة علي(عليه السلام)، فهو بحاجة إلى اجراء مطابقات، حول هل كان كلامه مطابقاً لحقيقته، أم أنّه كان يعظ ولا يتّعظ، فعلَ من قال شيئاً وأتى بخلافه، لأن الكثير من الناس يقولون ما لا يفعلون، والكثير من الناس يتخذون الدين مطية، والمعرفة وسيلة، يرغبون أن تحقق لهم الأمجاد، وتقودهم إلى زعامة العباد، والحق أن الانتباه إلى سيرته قد أخذ به الكثير من الكتاب، من مظانة في كتب التاريخ والأحداث والرجال والتراجم الخ...

إنما الذي نحن بصدده هو الوصول إلى هديه بهديه، لا بما قيل عنه وفيه، بذلك تتحقق غاية من ورائها رغبة في أن يكشف ا لنا عن بصائر، إدلهم عليها الخطب، ونالت منها عاديات الأيام، فكان أن عبث ببعض تلقينها للناس، إلى أن صارت المقارنة بين الإمام الهادي، والزعيم الجائر أحياناً، لا تفترق إلاّ في ما يقال: إن هذا ألين من ذاك، أو هذا أشد وطأة من ذاك، مع سعة الفارق بينهما، واختلاف الغاية من وجودهما.

وفي متابعة هذا التبيان حول الدنيا ـ والدنيا هنا هي ذاك المكان الذي يشغل قلب الإنسان، ويخفي خلف لذائذه أسوأ النهايات ـ يقول:

"فإن الدنيا رنقٌ مشربها، ردغٌ مشرعها(١)، يونق منظرها، ويوبق

---

١ ـ رنق مشربها وردغ مشرعها: أي ماءها كدر كثير الطين.

مخبرها، غرور حائل، وضوء آفل، وظل زائل، وسناد مائل، حتى إذا أنس نافرها، واطمأن ناكرها، قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبالها، واقصدت بأسهمها، وأعلقت المرء أوهاق المنية، قائدةً له إلى ضنك المضجع، ووحشة المرجع"(١).

ينتقي الإمام للناس كلمات تعبر لهم على المقدار الذي أوتوه، عن الحال في واقعها وأوهامها، عن الحياة نقصد، وفيما تصير إليه، فمن أمسك بحبال الدنيا خديعته وجرى استرقاقه، وهو من موقع دوره كهاد، ينطق بواجب تخليص الإنسان من مغبة الاندحار إلى بئس المصير، وهذا لا يكون إلاّ لمن يخاف على المخلوقات من نهايات ليست محل سعاداتها.

الدور الذي تلعبه مواعظ وتعليمات الإمام، ليس له أي منحى دنيوي في الواقع، فهو يروض أنفس البشر، من أجل بلوغها دار المستقر، وهذه غاية الرسل والأنبياء وهو الدور الذي أتى به القرآن الكريم.

فإن ا   سبحانه في كتابه يرسخ فكرة استبعاد الاستئناس لهذه الحياة الدنيا، ويوجه أنظار الإنسان وقلبه إلى حياة يخلد فيها، هي سعادته إن كان من السعداء وشقاؤه إن كان من الأشقياء.

وهنا أيضاً نقف على حقيقة أخرى من حقائق معرفة الإمام، وهي

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٨٢.

أنه لا يصدر عنه بالنسبة للناس عموماً، إلاّ ما ينفرهم من الركون إلى ما يخدع أمانيهم، ويقودهم بهديه إلى حقيقة ما تصبوا إليه نفوسهم، وإن كانت هذه النفوس غير ملتفتة دائماً، وغير متذكرة دائماً الأمر الذي هو بلغتها ومنتهاها.

وباعتبار أن دار الدنيا فيها الزينة ـ والزينة هي الأشياء التي تضاف من أجل أن يختفي اللّباب، وتظهر بدائله ـ أي أنها ليست عين الحقيقة، وكلما ازداد المرء قرباً منها ازدادت ايغالا في الابتعاد عن حقيقتها، فنال الانخداع بظاهرها.

والذي يقود إلى هذا، هو إلحاح الأنبياء والرسل والأئمة، كما والكتب السماوية على تطهير النفس من خداعها، والالتفات إلى صفاء السرائر، حتى يتمكن الهدى من طرق باب الفؤاد.

وهنا نجد كلام الإمام يهز في عمق الوجدان عن مكمن الفطرة، وإيقاظاً للعقل كي يدرك كيف أن التزود لحياة هي البقاء، هو جوهر انبثاق الإنسان إلى هذه الأرض وهذه الحياة، يقول:

"تجهزوا ـ رحمكم ا ـ فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقلوا العرجة على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد، فإن أمامكم عقبة كؤوداً ومنازل مخوفة مهولة، لابد من الورود عليها، والوقوف عندها فقطعوا علائق الدنيا، واستظهروا بزاد التقوى"(١).

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٤.

وكذلك كلامه مخاطباً الناس، ونريد أن لا يفوت القارىء أن الحياة التي قضاها الإمام علي(عليه السلام)، كانت كلّها في سبيل إزاحة الناس عن الباطل ودفعاً لهم نحو الحق، امضاء لدين ا ، وإذعاناً لنهج رسوله الكريم، وأداء لوظيفة أنتخبه ا سبحانه لها، ولا راد لإرادة ا تعالى، ولا مبدل لكلماته، وهذا يظهر بجلاء في كل مكان ينبئه فيه إلى أنه تفوه(عليه السلام) بكلمة، أو قام بفعل، أو نهى أوامر أو عاتب، أو حارب في شيء، أو ما شابه ذلك.

وفي ديمومة إعلانه في الناس عن وجوب عدم انهماكهم في حياة فانية، واقبالهم على حياة لا تزول، يقول:

"إنما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم"(١).

إن الدخول في عوالم الحياة الدنيا، دخولا يغلق البصر، ويمحي التعلق بحياة هي المستقر كثيراً ما يراود كلماته(عليه السلام) بل ولا تكاد تخلو من اشارة إلى حق، أو حرف عن باطل، وأن يتعامل معها تعامل الخصم، يعمل على طردها من قلوب المؤمنين، في كل سانحة فرصة ويجاوز في ذلك إلى أبعد، بل هو يعمل على اقصائها نهائياً، يقول:

"أخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم"(٢).

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٣.

٢ ـ المصدر نفسه.

لماذا يجب أن تخرج القلوب من الدنيا يا أمير المؤمنين؟ يقول: لأنّها مكمن الاختبار الذي ابتليتم به، وإنما أنتم مخلوقون لغيرها.

ننظر هنا قوله: "ففيها اختبرتم، ولغيرها خلقتم".

ما الذي بقي كي يقدم الإمام مفاتيح الرحمة، ويسحب الناس إلى مدارك النور، لعل الذي بقي هو أن ننظر إليه كيف يشير إلى خاصته وأهله في عدم امساكهم بحبائل الدنيا، ونلاحظ، أنه يخاطب الحسن(عليه السلام) ابنه مع أنه إمام، وهو كعلي(عليه السلام)، يستمد من رسول ا (صلى ا عليه وآله) نور المعرفة، ويسير على هدى كلماته، ليس تعلماً بعد نقص، وإنما مجانبة لعظيم الحكمة والفضل، فالزمن لم يكن ليفصل كثيراً بينه وبين جده، إنما أبيه(عليه السلام) يعظه ليسمع كل ذي لب سليم أو مريض، فلا يقال ترك أهله والتفت إلى الآخرين، مع أنه القائل في نفسه وفيهم: "بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنمتم ذروة العلياء، وبنا انفجرتم(١) عن السرار"(٢).

فإذا كان خطابه يتّجه نحو ولده، فإنه بما أوتي من ولايته على الناس، وهي سمه خصه بها رسول ا (صلى ا عليه وآله) في مواقف عديدة، منها قوله(صلى ا عليه وآله): "ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه"(٣).

---

١ ـ انفجرتم: دخلتم في الفجر، أي كنت قبل في ظلام: وصرتم إلى ضياء ساطع بهدايتنا.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٤.

٣ ـ أدرجنا مصدر هذا الحديث في مكان آخر.

والقول بعد هذا هو شيء من الضرب في الظلمة، لأن الإمام الذي يريق عمره لا من أجل نفسه، إنما قد ذرفها في ا تعالى، يقوم في الناس عالماً أنّهم سيخوضون في صراع معه وعليه، فقد يشتبه على ذي اللب أحياناً الحق، فكيف بمن قد أغفلت الظلمة لبه، بهذا نجده عندما يحاكي الإمام الحسن(عليه السلام)، ينظر إلى كل امرئ في هذه الأرض على أنه الحسن، ليست بدعة هذه، بل هي عين الحق، تظهر عند قوله:

"يا بني إني قد أنبأتك عن الدنيا وحالها، وزوالها وانتقالها، وأنبأتك عن الآخرة وما أعد لأهلها فيها، وضربت لك فيهما الأمثال، لتعتبر بها"(١).

ننظر إلى كلماته هنا، فلا نجد أنه يفرق في خطابه بين ولده وبين كافة أبناء الناس، فهو في كل مكان أنبأ الناس عن الدنيا وحالها، لم يخصص أحداً، وواضح هنا أنه لا يغاير دوره وطبيعته، فإذا كان قد أنبأه عن الآخرة، فإنه لم يخفها عن بقية البشر، وفي كل سانحة آثر فيها الكلام على الصمت، وسوف تجد ضياءه يشع بنور وحي ا تعالى، مع أهله ومع سواهم.

وما تزال الدنيا ترتسم في أعين الناس حسنة جميلة، وهو يزيح عن أعينهم غشاوات خداعها،ترى ما الغاية التي آثر من ورائها أن

---

١ ـ نهج البلاغة: كتاب ٣١.

يشهر ذي فقاره عليها إن كان طالب ملك، فإنه حائز عليه، وإن كان طالب لشأن آخر من شؤونها، فهو في قبضته، فلماذا يحقرها ويصغرها في عيون الناس، رجالا ونساء، عرب وغير عرب، مسلمين وسواهم، لذاك الوقت ولكل وقت.

تدلنا كلماته نحو الإجابة عن هذا التساؤل عند قوله:

"إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما ورائها شيئاً"(١).

وهذا هو عين الأمر الذي توقفنا عنده عندما أجرينا الموازنة بين الأعمى والبصير، ويتبين لنا هذا أنه يشاق الدنيا، لأنها في الواقع ضده، أي إذا كانت الهداية التي فرضها ا تعالى في الناس قد تمثّلت بالكتاب والنبي والرسول والإمام، فإن هؤلاء جميعاً هم امتدادها، فهي العمى وهم البصيرة، وهي الظلمات وهم النور، ولا تستوي الظلمات ولا النور، ومن هنا نفهم ذاك السبب الرئيسي الذي جعل من علي(عليه السلام) ذاك النور الذي يصارع الظلمة، "فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص"(٢).

وقد ترك رسول ا (صلى ا عليه وآله) في الناس الثقلين، كتاب ا وأهل بيته، وقرنهم بأنّهم لن يفترقا إلى يوم القيامة، كما أجمع على أن الهداية من الضلال تكمن في التمسك بهم، عند قوله(صلى ا عليه وآله): "اني تركت فيكم ما أن

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٣٣.

٢ـ المصدر نفسه.

تمسكتم به لن تضلوا، كتاب ا ، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما"(١).

فتوأمة الكتاب وأهل البيت، ومساواة علي(عليه السلام) بمحمد(صلى ا عليه وآله) وفق المنطق الذي آثره رسول ا في الافصاح عن امامته(٢) وتزكية ا سبحانه لهم في آية التطهير، جميعها من أدوات ذي اللب في تفهم أن الأمر ليس في الزعامة السياسية أو غيرها، إنما هي راية حق يتوارثها الهداة منذ آدم إلى قيام الساعة.

وفي ختام نظرة الإمام إلى الدنيا، يطالعنا قوله(عليه السلام) في سياقة الناس عنها ودفعها عنهم، حيث يقول:

"فأزمعوا عباد ا الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال، ولا يغلبنكم فيها الأمل، ولا يطولن عليكم الأمد"(٣).

الحق أن الذي يؤثر حرب الدنيا بهذا المقدار من التبصر، ويود لو

---

١ ـ لهذا الحديث مصادر متعددة، منها سنن الترمذي: ١٢٥/٦ (٣٧٨٨)، مسند أحمد: ١٧/٣ ـ ٢٦ ـ ٥٩، مستدرك الحاكم: ٣٢٣/٣ (٤٦٣٤)، وهنالك مظان متعددة يمكن الرجوع إليها بخصوصه.

٢ ـ في غير الغدير هناك رسائل أفصحت عن حمل علي لراية رسول ا (صلى ا عليه وآله) منها: "قراءة البراءة على الناس، ومنها استخلافه في المدينة، ومنها اعطاءه راية خيبر الخ، ينظر على سبيل المثال تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي: ١٥ ـ ٥٦.

٣ ـ نهج البلاغة: خطبة ٥٢.

أن الناس تنفتح قلوبهم على مغادرة مخادعها، بكل هذا الاصرار، وجميع هذا الالحاح، يجعل من المتتبع له، امرء غائصاً في مياه الرحمة، تلك رحمة ا التي مد الناس بها ببعث محمد(صلى ا عليه وآله) (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين)(١).

وتتجسد هذه الرحمة أكثر ما تتجسد في خوفه على مخلوقات ا ، خوف الذي كشفت له الحجب، وعرف كنه سرائرها، وميله الميل الأبوي بالغ الحنان والعطف والخوف عليهم، نلتمس طرفاً منه هنا، يقول:

"فوا لو حننتم حنين الولّه العجال، ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جؤار متبتلي الرهبان، وخرجتم إلى ا من الأموال والأولاد، التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة أحصتها كتبه، وحفظتها رسله، لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه"(٢).

هذا حديث خائف على أمته، قابض على رسالات ربه، مدرك لحقائق الأمور، وإلى أين تذهب بالناس دنياهم، لقد هم(عليه السلام) أن ينتزع الدنيا من قلوبهم انتزاع عدوه من مكمنه، ليس له في ذلك صالح سوى أن لا يرى في عباد ا بعد أن أيدهم ا بنور نبيه الخير، وأن

---

١ ـ الأنبياء: ١٠٧.

٢ ـ المصدر نفسه.

يستقيم أمر دين محمد(صلى ا عليه وآله)، الذي أفنى من أجل ارضاء ربه به عمره منذ بدء خلقه حتى لقي وجهه شهيداً مخضباً بدمائه.

ودلالات خوفه على أمة محمد(صلى ا عليه وآله) وسائر الناس لا تخفى على أحد، منصف كان أم غير ذلك، إنما لا يطلب الإمام أجراً جراء أدائه مهام هداية البشرية، ومعلوم أنه يريد للناس الحياة التي بها ينعمون بآخرة لا يغشون فيها ما وعد ا الظالمين، بل طريقاً مهدتها الرسل، وأعدها خاتمهم وأمسك بها وصية عليهم جميعاً أفضل الصلوات من ا تعالى.

يواصل تحفيز أناس للرهبة من مقام ربهم، لما في هذه الرهبة من رفاه لهم، فيقول(عليه السلام):

"أوصيكم عباد ا بتقوى ا الذي ألبسكم الرياش، واسبغ عليكم المعاش، فلو أن أحداً يجد إلى البقاء سلّماً، وإلى دفع الموت سبيلا، لكان ذلك سليمان بن داود(عليه السلام)، الذي سخّر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة، فلما استوفى طعمته، واستكمل مدته، رمته قسي الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية"(١).

إذاً لا طائل من التمسك بحبال الدنيا، فإن العبرة بالذين انصرفوا لا تخفى، أو يجب أن لا تخفى، حتى لا يستغرق الإنسان بالخديعة التي تمدد أطرافها نحوه الدنيا، وكي لا يفوت الناس واعز الهداية،

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.

فإنه يواصل عنايته بهم، مفوضاً من ا تعالى في اعلامهم ما يفوتهم، وحاملا متابعة رسالات ربه، يعظ مثلما وعظ المرسلون الأولون، ويؤدي ما أدت الأوصياء من بعدهم، يعلم من هو وما هو، ويعلّمهم أن يقفوا في هذا الأمر موقف العارف له، في كل مرة نستمع إلى خطابه الذي يؤكد أنه ليس من العاديين في الناس، أو من عامة الخطباء أو الساسة، إنما تولّى منصب الهداية لا عن ملك انتزعه، ولا عن دولة أقامها فتسلّط بالسيف على رقاب الناس، إنما بالهداية الإلهية المحمدية.

نلحظ كلماته هنا في تبليغ واجبه، والإعلان عن حقيقته، يقول:

"إني قد بثثت لكم المواعظ التي وعظ الأنبياء بهم أممهم، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم"(١).

وفي هذا القول ما يجعل القلب يجول ببصره أنحاء مفرداته، فيستمع إلى روح الشفقة التي يحملها، وثقل المهمة التي يقوم بها.

لكن الناس كعادتهم مع كل نبي أو هاد، يسومونه غاية التعب، ولا يشفقون على كينونته، رغم عدم احتياجه لهذا، لكن (هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان)(٢).

يتابع قائلا(عليه السلام): "وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا، وحدوتكم

---

١ ـ المصدر نفسه.

٢ ـ الرحمن: ٦٠.

بالزواجر فلم تستوسقوا"(١).

والسبل التي اجترحها الإمام في إعادة بناء النفس الإنسانية، هي على تنوعها وكثرتها فيما يظهر من كلامه، لم تكن لتردع الناس عن التعلّق بالدنيا واتيان حياض الآخرة، والذي يشفع في ذلك كلامه هنا وفي مواطن عديدة، أنه بادرهم القول والفعل والنصيحة والمنحة والعطية، مثلما بادرهم التهديد والتأديب والوعظ، لكن أكثرهم لم يستقيموا، ولم يتخذوا الدنيا مثلما صورها لهم، حيث قال: "أيها الناس، إن الدنيا تغر المؤمل لها والمخلّد إليها، ولا تنفس بمن نافس فيها(٢)، وتغلب من غلب عليها"(٣).

بجميع ما حوت كلمات علي بن أبي طالب(عليه السلام) من عظيم الموعظة، ومسلك التربية، وقوة الفؤاد، وشدة الخوف على العباد، نعرف أن به يعرف وبرسول ا (صلى ا عليه وآله)، ولا يعرف بسواهما، اللهم إلاّ في امتداده في آل بيت النبوة، وهو بحسب ما يرد في كلامه قد اتخذ للناس "الأمثال الصائبة، والمواعظ الشافية، لكن لو صادفت قلوباً زاكية، واسماعاً واعية، وآراء عازمة، والباباً حازمة"، وهو الذي

١ـ المصدر نفسه.

٢ـ أي لا تضن الدنيا بمن يباري غيره في اقتنائها وعدها من نفائسه ولا تحرص عليه بل تهلكه.

٣ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٨.

على يقين من ربه كما قال(١).

ويصل الإمام علي(عليه السلام) مع الناس في شأن الدنيا، أبعد ما وصل إليه الهداة، من تحذير من ساقهم بعصاها فاطاعوها.

يقول: "قد تزينت بغرورها، وغرت بزينتها، دارها هانت على ربها، فخاط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها، لم يصفها ا لأوليائه، ولم يضن بها على أعدائه، خيرها زهيد، وشرها عتيد، وجمعها ينفذ، وملكها يسلب، وعامرها يخرب، فما خير دار تنقض نقض البناء، وعمر يفنى فيها فناء الزاد، ومدة تنقطع انقطاع السير"(٢).

في موازاة حبه للناس ورجائه خلاصهم من فتنة الحياة الدنيا، ودخولهم حظيرة الحق، وامتناعهم وصرفهم عن مسارب السوء، تقف هيبة الإمامة ناصعة النور لمن ألقى السمع وهو شهيد، فينفرط من عقد لؤلؤها كلم يمشي مع الناس منذ بداءة خلقهم، حتى منتهيات آجالهم، وما يزال يعرض في الدنيا كضد لها، لا يمكن الاستفادة من مروره بها إلاّ كمن يرتشف قطراً من الماء في طريق طويل السفر، قليل الزاد، يحضر قلوب الناس في قوله:

"قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال،

١ـ أنظر: نهج البلاغة: الخطبة ١٠، وغيرها.

٢ـ نهج البلاغة: الخطبة ١١٢.

فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة اذهب بكم من الآجلة"(١).

ترى لماذا كل هذا الشغف بتخليص الناس من الدنيا، لأنّه عالم بمصائر الناس، متيقّن من رب عبده عن بصيرة، واحيا حياته على سبيل مرضاته، وأحب أن يلتذ الناس بنعمة القرب منه، وأبغض أن يسومهم باريهم سوء العذاب بما كسبت أيديهم، فأشفق وأرفق، وعلم وهدى، وقد حذّرهم الدنيا بقوله: "احذركم الدنيا، فإنها منزل قُلعة، وليست بدار نُجعة"(٢).

ثم يواصل حضه لهم على ذكر منتهاهم ما تيسر له ذاك، يقول:

"أولستم ترون أهل الدنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتى: فميت يبكى، وآخر يعزى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه ألا فاذكروا هادم اللذات، ومنغّص الشهوات، وقاطع الأمنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة، واستعينوا با على قضاء واجب حقّه"(٣).

ويندر أن تنفلت من بين أيدي المتابع لعطاء الإمام علي(عليه السلام) في الناس،قولا أوفعلا أو حقاً يراه أهل له، ذلك لأنه كما تقدم لايرجو

---

١ ـ المصدر نفسه.

٢ ـ المصدر نفسه.

٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٩٨.

لهم إلاّ حسن النهاية، وجمال المئاب، إنه يذرف جميع هذا العمر منذ البداية حتى الختام، وهو سائر في الأرض يرغب في ارشاد عباد ا إلى ا تعالى.

ولما كانت الدنيا هي المعبر الأوسع عن الشهوات والخداع وقصر الآمال والاستغراق فيما لا تنفع معه الخاتمة نافعة، رأيناه يعرف بنفسه عن نفسه في تنصيب إمامته، في القضاء على مؤامرات الدنيا في قلوب الناس، ولعمرك متى ما انصرفت الدنيا بهذا المعنى عن القلب، يكون الإنسان قد بلغ غاية فطرته، وتعلق بحبل نور امامه، ووصل حبال هذا النور، بمواطن حب المعشوق والأكمل والأعظم الذي تزحف نحوه البصيرة، وترغب إليه الذات.

هكذا كانت الدنيا هي الرمز الذي أعلن عليه الإمام الحرب، وأن كل حرب قام بها، إنما ينبغي أن تنصرف هذا المنصرف، وأن كل وصية أوصى بها، وكل بادرة خير للبشرية بادرها، فإنما تنطلق من ازاحة حجب الظلام الذي يمنع نور ا تعالى من اختراق قلب المؤمن، وكان بذلك لمن يبصر عيناً، ولن يسمع أذناً، ولمن يعشق فؤاداً، وصارت بعد ذلك دلائله عليه، ذاته في هذا المقام، ولا يحتاج بعدئذ لمن يوصف له الرتب، ويحاول ازاحة التسميات والصاقها به، الإمام الملاذ، هو المثال بهذا المعنى، الذي يعلم كل شيء، ويذهب في الناس جميعاً مذاهب الخير التي تعم عليهم، وإن كان ذلك يحتاج

إلى قرابين كبيرة وعظيمة، وإن كانت نفسه هي قربانه إلى باريه.

هكذا يصل السالك إلى طريق علي(عليه السلام) بعلي(عليه السلام) في جهة الدنيا، وثمة طرق تناولها كي يقيم فيها الحجة على الناس، ويخلص قلبه تعالى، يلقاه مطمئناً إن أدى ما بعث من أجله منها ما قاله ا ورسوله، وتنظر في طريق معرفتنا امامنا كيف أنطق ربه لسانه في البوح بمكنونات رحمته التي اختزنها قلبه، مثلما ننظر مبادرته في القول بنبي ا الأكرم محمد(صلى ا عليه وآله).

الطريق إلى علي(عليه السلام) من قوله برسول ا (صلى ا عليه وآله)

كانت محطتنا في ايضاحه(عليه السلام) حقيقة الدنيا على قصرها ترغب في اطلاع الفؤاد على من وكيف وما هو الإمام، في مقابل مخلوقات ا تعالى، والذي يصرف أدنى جهده في الاطلاع على تعليماته في شؤون الدنيا، سوف يجد أنه بذل من أجل ايضاحات خفاياها، معظم جهده، في مقابل بقية هديه، لأنها تعتبر المسرح الذي تجري عليه أحداث الإنسان وما لها من حبائل تربط بها على قلبه، فكان منادياً فذاً في الانتباه إلى مساوئها، والنظر فيما يمكن أن يؤخذ من محاسنها.

ونحن إذ نرصد عملنا في هذا الفصل من أجل معرفة الطريق إليه، نوقظ الغافل من غفلته ونرجو أن يدخل معنا مضمار إمامته من بوابة

معرفته برسول ا (صلى ا عليه وآله)، وفق ما انتهجه لنا علي بن أبي طالب(عليه السلام)، ولا شك أن ما في الناس من يجهل أن محمداً(صلى ا عليه وآله)رسول ا ، لكن الحقيقة المحمدية أمر آخر هو غير مظاهر آياتها، ولسنا هنا بصدد فلسفة الحقيقة هذه، إنما نسير على خطى نرى أنها من الطريق التي تؤدي بنا خارج نفق الظلمات، وتوصلنا نحو ساحات نور الإمامة والنبوة في علي ومحمد (عليهما أفضل صلوات ا وسلامه).

وغير خاف على الناس مدى تعلّق علي بن أبي طالب(عليه السلام) برسول ا محمد(صلى ا عليه وآله)، لكن الذي قد يكون أكثر اضاءة وأعلى أنواراً، هو تحري هذا التعلق في بعض أقواله(عليه السلام)، ويندر أن تجد في كلام الناس ما هو أدلّ على لصوقه به، من جهة نبوته تارة، ومن جهة حقيقته الإنسانية تارة أخرى.

كما قد يتجلى بذلك العمق المرجو من الدنو، ففي ما تقدم من نظرية الإمامة تلمسنا أوجه الرغائب الحقة وفق ما فطر ا الناس عليه، وكان من منافع ذلك وا أعلم أن يلفت الانتباه نحو أمور أكثر كلية وشمولية، بل لعلها أكثر قرباً من حقيقة الإمامة، وإذا كان لابد لهذا التصور من مصداق خارجي، كان لابد لنا من تحري هذا البعد المنطقي.

وتوصلت بنا السبل إلى أن البشرية تقطع بوجود أنموذج هو غاية رجائها الإنساني، وهذا الأنموذج دلت عليه كتابات الناس منذ

القديم، واعتقاداتهم، فهو ليس بدعة، وإنما بات بمنزلة اليقين لدينا بعد أن اختلطنا ببعض المعارف في علم النفس، وبعد أن أجرينا جملة من التحليلات التي تلزم من أجل ابراز هذا الأمر واظهاره من مطامر الغياب، إلى مرايا الحضور، وبعد أن وصفت لنا آيات ا سبحانه المصطفين من رجاله، والموظفين لديه في ابلاغ الناس عنه، وتحميلهم الأمانات التي تسير في الناس بالقسط، تدارسنا حياتهم، وبالنظر إلى أن هذا الكتاب يمهد طريقاً نحو طريق، فإنه اقتصر على جزء من حضور الإمامة، وكان بذلك المشهد العلوي المقدس، هو فاتحة هذا الأمر.

والذي يرسي دعائم التصديق في الاتجاهات جميعها، أن علي بن أبي طالب(عليه السلام)رجل اختصه رسول ا (صلى ا عليه وآله) لنفسه مثلما اختص ا أنبيائه لنفسه، كما أدركنا كيف أن علي(عليه السلام) أيضاً أفنى نفسه فداء لمحمد(صلى ا عليه وآله)، فانسجمت بذلك نفسيهما، وهو القائل فيه: "علي مني وأنا منه ولا يؤدي عني إلاّ علي"(١)، وسبق أن قلنا: إن هذا ليس من أجل إبراز الفضائل، إنما هو من أجل إجلاء الحق، والتعرف على قائد النفس إلى فطرتها، ومذكرها بآي ربها.

بذلك يمكن أن نلتقط ايحاءات كلماته عندما يأخذ في القول حول المصطفى محمد(صلى ا عليه وآله) فعند تعليقه عن الكيفية التي تواترت فيها

---

١ ـ راجع تذكرة الخواص: ٤٢٠.

الرسالة والنبوة إلى محمد(صلى ا عليه وآله)، يقول في وصف الأنبياء: "فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلّما مضى منهم سلف، قام منهم بدين ا خلف، حتى أفضت كرامة ا سبحانه إلى محمد(صلى ا عليه وآله) فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات مغرساً، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناءه، عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال، وثمرة لا تنال، فهو إمام من اتقى، وبصيرة من اهتدى، وسراج لمع ضوؤه، وشهاب ساطع نوره، وزند برق لمعه، سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل"(١).

فإذا تأملنا في كلمات هذا التعريف بمحمد(صلى ا عليه وآله) من قبله(عليه السلام)، رأينا أن لهذا التوصيف أبعاد شتى، وإذا أخذنا مثلا جملة: (الشجرة التي صدع منها أنبيائه)، أو جملة: (هو امام من اتقى، وبصيرة من اهتدى)، أو تلقفنا قوله: (سراج لمع ضوؤه، وشهاب سطع نوره)، سوف نجد استقراراً لمكين الحب في عمق نفسه له، فمن ذا الذي أفرد نفسه للدفاع عنه، منذ ليلة الهجرة حتى لحظة التحاقه بباريه سبحانه.

إن في هذه الكلمات توسع، فالذي آمن برسالة محمد(صلى ا عليه وآله) ليس

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٩٣.

شخص عادي شأنه شأن من آمن من الآخرين، وعلّة هذا أن يراه يتقلّب في أصلاب الأنبياء، ولا يخالط طهره شحوب أو رياء، فهو من هذه الجهة ليس فقط مطمئناً للنبوة اطمئنان من قامت عليه الحجة فدخل في دين ا ، بل يظهر أن يعرف كنه النبوة، ويعرف تمام القائم بها لا عن إعمال عقل، وإنما عن بصيرة نبعت من ذاته، فتراه يصفه بأنه أمام من اتقى، ثم في مكان آخر يعرف الناس بأنه (بلغ الرسالة صادعاً بها، وحمل على المحجة دالا عليها، وأقام أعلام الإهتداء، ومنار البيضاء"(١).

فهو في جميع الأحوال آخذ من ا ، معطي إلى عباده كوسيط ينقل وحيه، ولكن ليس هذا الوسيط من الأمر في غياب عن الاندماج في أصله، بل مندمج فيه، ليس دالا عليه فحسب، بل تكاد تكون النبوة هي الشيء الوحيد الذي عبر به عن محمد(صلى ا عليه وآله)مع أن محمداً(صلى ا عليه وآله) بشر، لكن ثمة ذلك الفارق الذي يفصل بين الإنسان مثلا والعمل الذي يقوم به، فلنقل أن فلاناً صانع سفن، فإن الصنعة شيء يضاف إلى الإنسان، ولا يعبر عن حقيقته، وبمعنى آخر فإن كل أولي الوظائف الذين يقومون بأداء أعمالهم، تنفصل العمال عنهم انسانياً، أي من حيث هم بشر من جهة، ومن حيث أنهم يمارسون الأعمال من جهة ثانية.

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥.

بينما عندما نتأمل في توصيف علي(عليه السلام) لمحمد(صلى ا عليه وآله)، فإننا نكاد نتلمس كلاماً في أعماق الكلام، يدلّ بشكل غير بعيد المنال، على أن ثمة دمج تام بين محمد(صلى ا عليه وآله)النبي الرسول وبين النبوة والرسالة، هذا مثلا عند قوله(عليه السلام): "قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار، وتنبت إليه أزمة الأبصار"(١).

سبق أن قلنا أن الغاية من ايفاد الرسل بحسب الآي الكريم، هي أن يقوم الناس بالقسط، هذا من جهة سلامة عيش الناس في الدار الدنيا، وهم عليها لمكافؤون، ولكن هنالك في عمق اللحظة البشرية عمق الحقيقة، ثمة ضوء الحق الذي تنجذب نحوه الأفئدة، وهي هنا جوهر، كينونه، ليست وظيفة، فالذي تنصرف إليه الأفئدة بذاته أمر يتعلّق الأمر به، لكن الذي تنصرف إليه الأبصار، فإنّه جوهر نبوة، جوهر صفوة إلهية، بذلك تكون النبوة إحدى ملكاته التي تعبر عنه، وإن كان هو الذي في الواقع يعبر عنها، ومن يكون ميلان الأبصار بكليتها نحوه، معناه أنه ملاذ كل مخلوق، عندما ينكشف عنه حجاب الظلمة أو ينزل منازل الأبرار، ونجد أن علي(عليه السلام) عندما يتحدث عن رفقته برسول ا (صلى ا عليه وآله) يقول: "أنا من رسول ا كالصنو من الصنو"(٢)ويدلنا على نفسه بطرائق ايضاحه للحقيقة المحمدية، فهو في كل مرة

١ـ نهج البلاغة: الخطبة ٩٥.

٢ـ نهج البلاغة: كتاب ٤٥، وقد مر.

يأتي فيها على ذكره(عليه السلام)، يكشف حجاباً من الحجب التي لا يدركها عامة الناس، ويحتاج معها المرء إلى هاد يسوس قلبه إلى إمامه الذي هو وإياه "كالصنو من صنوه" فيفرج مفردة تلو أخرى، فنراه عندما يبتدئ الصلاة على رسول ا (صلى ا عليه وآله)، تارة يقدم صفة من صفاته، وأخرى يظهر اداء من أداءاته وفي غير مكان ينصرف لتقديس حقيقته.

وننظر هنا مثلا قوله فيه أنه(صلى ا عليه وآله) "الموضحةُ به أشراط الهدى، والمجلو به غربيب العمى"(١)، والناظر إلى هذا القول، يحتاج إلى دراية مكمن الغاية من ايراده، فهذه ليست صفة من صفات رسول ا (صلى ا عليه وآله)، أو عملا من أعماله، إنما هي حقيقة من حقائقه، فيه أي (بذاته بمعناه) تنكشف دلالات وعلاقات الهدى، وبه أيضاً بما هو هو، تنكشف ضلالات الظلمة، فيخرج القلب من العمى إلى البصيرة.

وهذا مثل قوله(عليه السلام) في إظهار حقيقة آل محمد(عليهم السلام) عند ذكره "بنا اهتديتم في الظلماء"(٢)، وهذا يشير إلى حقيقة النور الذي تكرس فيهم، فالخروج من الظلمة كما سلف والدخول في النور يستلزم الانكشاف على الإمام، وتهافت الأفئدة نحوه، لذاك نجد الذي يخرج عن مدارات أنواره،إنما هوذلك الإنسان الذي لم يعمرا

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٨.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٤.

قلبه، وإن هو فعل لكان قد بلغ الاقبال بكلّيته عليه، ولكان ممن أحباب الحكمة، ولا غرابة في قوله(عليه السلام)، ومشابهته التامة بينه وبين رسول ا ، سوى في تنزيل القرآن، فقد أورد في مكان آخر ما نصه في سبيل ايضاح حقيقته للناس قوله: "إن أمرنا صعب مستصعب، لا يحتمله إلاّ عبد مؤمن امتحن ا قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلاّ صدور أمينه، وأحلام رزينة"(١).

وفي عطف هذا القول على ما قاله رسول ا (صلى ا عليه وآله) في علي(عليه السلام): "علي مني وأنا من علي" نجد أن هذا التلازم بين محمد وعلي وآل البيت(عليهم السلام)، هو تلازم في الكينونة في الماهية والذات، الأمر الذي يجعلنا نقر بأن الإمامة في الناس هنا أيضاً قد انكشفت عن وحدة كما قدمنا بين رسل ا ، مستمرة متناقلة غير مفرقة فيما بين واحد منهم والآخر، ولهذه الاستمرارية أعلام يظهرون فيما بين الزمن والآخر، ولدى كل واحد منهم على السابق واللاحق.

يقول علي(عليه السلام): "كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم"(٢)، ويقول في مكان آخر "أريدكم وأنتم تريدونني لأنفسكم"(٣)، فهو في مقولته الأولى يدلي بأنه جائز على

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ١٨٩.

٢ ـ نهج البلاغة: كتاب ٣١.

٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٣٦.

معارف من سبق ومن لحق، ويؤكدها غير مرة، يقول هنا مثلا: "اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلاّ تبطل حجج ا وبيناته"(١)، ثم ليست هذا فحسب، بل يترك الناس إلى الصدوع بأمر هذا الفهم للإمام، ويكفي الحاذق أن يتأمل قوله وهو يشير إلى صدره قائلا: "إن ههنا لعلماً جماً، لو أصبت له حمله"(٢).

والذي يستنتج مما تقدم، إن علياً وآل بيت رسول ا جميعاً ورسول ا (صلى ا عليه وآله) من جوهر واحد، وان أمر هذا الجوهر صعب، بل شديد الصعوبة، لذلك لا يجد الإمام فيمن كان يغشاهم نوره، من يتمكّن من تلقّي المزيد من معرفته، كما أن رسول ا (صلى ا عليه وآله) كرر وصيته للناس في النظر في كيفية حفظهم لأهل بيته، فهو يعلم أن القوم لا يعون معناهم(٣).

وفي العودة إلى تعريف علي(عليه السلام) الناس برسول ا (صلى ا عليه وآله) نتابع طرقه في الكشف عن الحقيقة المحمدية، وهو في هذه المرة يشير إلى ما حمله ا نبيه من أمانة تؤدى في الناس، يقول:

"أرسله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، فأدى أميناً، ومضى

---

١ ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ١٣٩.

٢ ـ المصدر نفسه.

٣ ـ أنظر التذكرة في وصية النبي بأهل بيته، م. س.

رشيداً"(١) في هذه تجمل الأنبياء لديه(عليه السلام)، فهو في مكان آخر من كلامه، يقول: "واصطفى سبحانه من ولده أنبياء ـ أي آدم ـ، أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدل أكثر خلقه عهد ا إليهم، فجهلوا حقّه، واتخذوا الأنداد معه،... وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ"(٢).

لعل هذا عمل من أعمال الأنبياء، وكما أشرنا قبلا فإن ثمة مراتب يبوح بالتعريف فيها الإمام، تارة تظهر الحقيقة بما هي جوهر، وتارة تصدر لتعرف أو تشير إلى أداة من أداءاتها، أو صفة من صفاتها، فهو هنا يعبر عن صفة أكثر من كونها كنه أو ذات، ونلاحظ مراودة الكلمة للمعنى عندما يريد لها أن تشير إلى صفة كيف تندرج إلى عالم الصفات، وعندما يستدرجها كي تعبر عن الحقيقة، كيف ترتفع معه إلى مصافها، وفي تعبير منه عن المكان الذي يضع فيه محمد(صلى ا عليه وآله)أمانته، يقول في آل النبي(عليهم السلام) "هم موضع سره، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، واذهب ارتعاد فرائصه"(٣).

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٩٩.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١.

٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢.

وفي انتقال إلى موضع يذكر فيه النبي بقوله: "اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحق بالحق، والدافع جيشات الأباطيل، والدامغ صولات الأضاليل"(١).

يلعب اظهار نور محمد(صلى ا عليه وآله) في حياة علي(عليه السلام) الدور الأكثر حسماً، والأشد وضوحاً لسببين فيما نرى رئيسيين:

الأول: يفهم من اجمال مواقفه وكلماته(عليه السلام) بأن الناس قد ذهبوا بعيداً في التغيير في البناء النفسي الذي رسخ معالمه وابتدأ انشاءه النبي(صلى ا عليه وآله)، وقد يلاحظ المتابع لمواقفه وآرائه وخطابه أنه يلهج وراء اعادة المستوى النفسي الإيماني للبشر كافة، وكان شيئاً مخالفاً جداً لما جاء به النبي(صلى ا عليه وآله) قد صار في حياة الناس شأناً اعتيادياً، والذي يدركه الإمام بالقطع لا قدرة لأحد على ادراكه، فهو كرسول ا (صلى ا عليه وآله)(أولى بالمؤمنين من أنفسهم) لخصيصة الإقامة جوهرياً، والتي يلزم منها بالضرورة كون هذا الإمام شاملا علمه، تامة معارفه، لا يعلمه أحد، ولا يشعر أحد بأنه أشد منه بأساً في أي شأن من شؤون الدنيا والآخرة، وأنه بناء على ما قدمت لنا أبحاث نظرية الإمامة، فهو كامل العصمة، وعلته أن ا سبحانه اصطفاه، مثلما برهنا في المكان الذي ورد فيه معنى العصمة بالإجمال.

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٧١.

إذن، فالناس مفارقة للدين الذي صرف رسول ا (صلى ا عليه وآله) عمره من أجل إعلاء شأنه، بحسب ما يفهم من كلام الإمام، ونأخذ مثالا على ذلك هذا المقطع من خطابه لأصحابه، يقول:

"وقد ترون عهود ا منقوضة فلا تغضبون! وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون! وكانت أمور ا عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، فمكّنتم الظلمة من منزلتكم"(١).

فالملاحظ في معظم كلمته(عليه السلام) أن الناس قد صرفتهم الدنيا عما جاء به النبي(صلى ا عليه وآله)أو معظمهم، فبذل جهده في إعادة هذا الأمر إلى نصابه، وكان بذلك يعبر عندما يريد الدخول في اعادته، أي أنه كان يحضر ذكر الرسول الكريم، ويجلي صدور الناس بتعداد مزاياه تارة، واظهار حقيقته أخرى، واعادة سيرته مرات، بهدف توثيق العلاقات ما بينه وبين الناس، في مواجهة نكوصات وانتكاس الناكسين. هذا الأمر الأول.

والأمر الثاني: يمكن التعرف إليه أيضاً من خلال سيرته في الناس، وهو التدليل على الإمام الهادي، الإمام (المثال)، في مواجهة زيغ قلوب الناس نحو أشخاص لا يرى فيهم ابتداء أهلية القيادة، فضلا عن أن منصب الإمامة لا يطالونه بحال، ليس فقط لقصر قوامهم، وإنما لما هو من تدبير ا ورسوله، أعني من الشؤون التي

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٠٥.

يرتبها الله ورسوله في الناس، ويصعب على الناس التدخّل فيها، وإن تدخّلوا من غير حق، قام صاحب الأمر الواقعي بإظهار هذا التدخّل، ومكافحته، حتى لا يختلط الحق بالباطل.

وهنا يشير(عليه السلام) إلى أن الله سبحانه قد بعث الرسول في الناس كي يخرجوا من ربقة الوثنية، ومن سيطرة الشيطان، وأيده بكتابه المحكم البين، حتى يتعلموا ويعلموا ربهم بعد أن جهلوه، يقول:

"وليقروا به بعد إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إن أنكروه"(١).

ويقول(عليه السلام) في أبرز تعبير عما حواه القرآن الكريم:

"فتجلّى سبحانه لهم في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما أراهم من قدرته، وخوفهم من سطوته"(٢).

إن تجلّي الله لعباده من خلال الكتاب الذي أنزل على محمد لهو من الكلام الذي يدلّ على أن الإمام قد خبر لب الحقيقة، وجاء بنا إلى جادة معرفته، من خلال ما يدل به على نبيه وكتابه.

فقد ارتكزت كلماته(عليه السلام) حول رسول الله (صلى الله عليه وآله) على مرتكز معرفته الخاصة به، لذلك جاءت تعبيراته عنه بهذا المقدار من الدقّة، وهو بعد ذلك يقول لابنه الحسن(عليه السلام) لقد كان لك في رسول الله (صلى الله عليه وآله) كاف لك من الأسوة، مستنداً على القرآن الكريم في هذا (لقد كان لكم في

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

٢ ـ المصدر نفسه.

رسول ا أسوة حسنة)(١)، ويتابع وصيته لولده وهي كما ذكرنا قبلا، أنها تمثّل سعة الإمام في احتضان جميع أمة رسول ا (صلى ا عليه وآله)، أي لا تقف عند الإمام الحسن(عليه السلام).

يتابع قائلا: "ودليل لك على ذم الدنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطئت لغيره أكتافها... فتأس بنبيك الأطيب الأطهر(صلى ا عليه وآله)، فإن فيه أسوة لمن تأسى، وعزاء لمن تعزى وأحب العباد إلى ا المتأسي بنبيه، والمقتص لأثره، قضم الدنيا قضماً، ولم يعرها طرفاً، اهضم أهل الدنيا كشحاً، واخمصهم من الدنيا بطناً، عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أن ا سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه، وحقّر شيئاً فحقّره، وصغّر شيئاً فصغّره، ولو لم يكن فينا إلاّ حبنا ما أبغض ا ، وتعظيمنا ما صغّر ا ، لكفى به شقاقاً "(٢).

إن هذه الكلمات، هي بحسب الوثائق التاريخية، وصيته لابنه الحسن(عليه السلام)، لكنها بحسب ميزان هذه الدراسة، فإنها دستور يقف عليه كل من أدرك أن الإسلام هو ا ورسوله وكتابه وأهل بيته.

كيف هذا؟

إن ا سبحانه اصطفى أنبياءه وخاصته، وأوفدهم إلى خلقه، وأقام معهم الكتاب، ثم بعد أن ختم بمحمد(صلى ا عليه وآله) ترك في الناس الهداة،

---

١ ـ الأحزاب: ٢١.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.

وبالاستدلال على الذين يهدون بما أنزل ا بلا تردد وما سنه رسول ا (صلى ا عليه وآله) بلا انقطاع، نلتمس أن الإمام علي(عليه السلام) في هذه الوصية قد فتح نافذة جديدة على متابعة شؤون الطريق إليه به، وستكون هذه النافذة، حول تعريفه بآل البيت وحول بعض ما انكشفت له من حقائقه معرفة ا جلّ وعلا.

من هم آل محمد في خطاب الإمام علي(عليه السلام)

كلما اقتربنا من رسول ا (صلى ا عليه وآله) أكثر كلّما انفتحت أبواب رحمته علينا، ولفح أرواحنا نوره أكثر، ولعل الحزبية والعشائرية هي أكثر ما تكون بعداً فيما يجب في الإسلام، فا سبحانه علّم المسلمين أن لا يتفاضل بعضهم على بعض، لا بنسب، ولا بجمال، ولا بقوة، ولا بسلطان، ولا مال، ولا بأي شأن من شؤون الدنيا، وإنّما جعل الفضل كما هو معروف عند صغار المسلمين قبل كبارهم، جعله بالتقوى، وجعلها مفتاح العروج إلى سدة رحمته.

وقد تقدم في بحث الأمة، كيف أن النظرة القرآنية إلى الناس، هي نظرة ترفع المؤمنين أياً كانت أعراقهم وألسنتهم وأوضاعهم الاجتماعية، فقراء كانوا أم أغنياء، أشداء كانوا أم ضعفاء، لونهم أبيض كان أم أسود، وعلى أي أرض وفي أي زمان، بينما تخفض المنافقين والكافرين وجميع من يدخل في تسمية غير المؤمن،

وتجعل مرتبتهم في نظر ا تعالى دون من يستحق حتى أن يذكر، ولولا أن الكتاب أتى ليهدي الناس، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، بفضل ربهم، لما رأينا القرآن يعير سوى المؤمنين أية عناية.

من هنا ينبغي أن تعلم! أن ا سبحانه ورسوله، وآل بيته الذين لم يختلفوا في القرآن ولم يخالفوه، جميعاً يدعون إلى أمة واحدة، هي أمة مبنية على الالتزام بمبادىء الإسلام، أي على أساس عقائدي، لا على أي أساس آخر.

هكذا نفهم من كلام ا وكلام رسوله وآل بيته، لذلك عندما نأخذ في تناولنا هنا آل بيت النبي بحسب ما يقودنا إليه كلام الإمام، فإن الذي لا ينبغي أن يظن، أنهم شكلوا حزباً قبلياً، أو اعتصموا بالطريقة الجاهلية في التعامل، وإنما تدلّنا سيرتهم على أنهم باعدوا بين من لم يلتزم تعاليم ا تعالى، أو خالفها، وإن كان من خاصة نسبهم، وقربوا من التزم بدين ا تعالى، وإن كان من أبعد الأبعدين عنه.

والمراد من هذا أن علياً(عليه السلام) لما أتى على ذكرهم، لم يكن اتيانه هنا على أسس حزبية أو عشائرية، حاشاه، إنما جاءت موازنته ما بينهم وبين الناس فيما فضلهم ا به عليهم، فهم بحسب تعبيره: "إنّا صنائع ربنا، والناس صنائع لنا"(١)(٢).

---

١ ـ نهج البلاغة: كتاب ٢٨.

٢ ـ آل النبي أسراء احسان ا عليهم، والناس أسراء فضلهم بعد ذلك.

من يملك من المؤمنين والمؤمنات أن يختار رداً لقضاء الله ورسوله إذا اختارا شيئاً، والله سبحانه يقرر ذلك: (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)(١) بهذه الآية المباركة تفهم كلمته بأن أهل البيت صنائع الله، والذي يمعن الإمام في اظهاره هنا، هو الوقوف في وجه من يرغب عن قضاء الله ورسوله، لا عن تعصب، إنما تنفيذاً لحكمه، والزاماً لغير الراضين.

وهو بعد ذلك يرفد الناس بالاطلاع عليهم مبتدأ بنفسه وبالدور الذي يضطلع به في الناس، ويرجى الالتفات والتأمل هنا في أوضاع المخاطبين، فهو يعبر عن حال الدين بعد الفاصل بين قيادته للأمة "القيادة السياسية هذه المرة" وبين المسافة التي قطعتها الناس فيما تلا وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله).

يقول: "أيتها النفوس المختلفة، والقلوب المتشتتة، الشاهدة أبدانهم، والغائبة عنهم عقولهم، أظأركم على الحق وأنتم تنفرون عنه نفور المعزى من وعوعة الأسد هيهات أن أطلع بكم سرار العدل(٢)، أو أقيم اعوجاج الحق.

اللهم إنّك تعلم أنّه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا

---

١ ـ الأحزاب: ٣٦.

٢ ـ أي ان اكشف ما عرف على العدل من الظلمة.

التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك"(١).

الملاحظ بلا كثير عناء أن الإمام يوثق في الناس دور الأئمة من جهة، ويظهر الوضع الذي آل إليه الدين بين الناس من جهة ثانية، ويظهر أيضاً وهو الأكثر أهمية هنا بالنسبة لبحثنا، أنه يشير إلى قيامه بأمر ا تعالى، يعرف بحقيقة إمامته، فهو لا يخرج للناس كي يتسلم زمام سلطة ولا ليتكسب أو يعتاش ويثري، فهذا لم يعرف عنهم آل البيت(عليهم السلام)، لعدم حاجتهم إلى ذلك، شأنهم شأن كل الهداة من رسل وأنبياء، فغايتهم القيام بأمر ا ومحاولة ايصال الناس إليها، ويتزعم علي بن أبي طالب(عليه السلام) هذا الإظهار منذ نومه في فراش رسول ا ليلة هجرته(صلى ا عليه وآله) إلى أن يسلّم في الناس عهده إلى ولده الإمام الحسن(عليه السلام).

ويدلّنا قوله هنا على أولية لحاقه لرسول ا (صلى ا عليه وآله) يقول:

"لم يسبقني إلاّ رسول ا (صلى ا عليه وآله) بالصلاة"(٢).

هذا في تعريفه بنفسه في البداية، ولم يترك أيضاً النهايات فحدث الناس عما يأتي من ورائه في عدة مواطن من خطبه، نأخذ مثلا هنا هذا الشاهد، يقول: "إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٣١.

٢ ـ المصدر نفسه.

أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على ا ورسوله"(١).

ونلاحظ أنه(عليه السلام) عندما يستخدم كلمة بعدي، فإنه يشير ليس فقط إلى الحين من الزمان، إنما يشير أيضاً إلى الموقف الذي تتخذه الناس، فإن كان معه "وهو الذي يدور الحق معه حيث ما دار"(٢) فإن أصحاب هذا الموقف ظاهر فيهم الحق، وإن كان سوى ذلك، فإن الكلام هنا يفيد عكس الحق، "فبعدي" تشير أيضاً إلى النهج إن استمر فهو لا خروج معه عن دين ا تعالى.

وهذا ينبغي أن يلتمس في الهداة من آل البيت(عليهم السلام)، فهو(عليه السلام)يؤكد أنهم "عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق"(٣).

ويعلّل الإمام وصفه لآل البيت بقوله: "نحن الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً"(٤).

بدون شك يصل المتأمل للطريقة التي يظهر فيها الإمام حقيقتهم،

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

٢ ـ أنظر الاحتجاج للطبرسي: ١٩١/١.

٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

٤ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٥٤.

أي الأئمة من آل البيت(عليهم السلام) تنكشف له ظواهر يلج من خلالها إلى البواطن، فالذي عرف علي(عليه السلام)، عرف أنه أصدق من نطق هو ورسول ا (صلى ا   عليه وآله)، وأنه لم تأخذه في الحق لومه لائم، وهنا يتابع وصفه وتعريفه بهم، يقول:

"فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا"(١).

وفي دمج هذه الخطبة مع قوله: "هم الذين يخبركم حكمهم من علمهم"، نصل إلى أن حقيقتهم جميعاً واحدة، ونقف عند قول رسول ا (صلى ا   عليه وآله) كذلك: "علي مني وأنا منه"(٢)، ونعلم أن رسول ا   لا ينطق عن هوى، فتكون مع النتيجة الموضوعية أن أئمة الهدى من معدن واحد، جميعاً أنبياء ورسل وأوصياء، بدلالة الحق الذي اظهره ا   تعالى ورسوله(صلى ا   عليه وآله) والإمام علي(عليه السلام) كما تبين في عدة مواطن.

وعندما يستخرج من نصوص الكتاب والسنة، ذاك الفارق بين النور والظلمة، ونقف على حقيقة النور (البصيرة) والظلمة (العمى)، يترتب علينا التوجه إلى ا   ورسوله بأئمتنا الهداة (المثل) الذين ينبغي من أجل التعرف على حقيقتهم، أن نلج: نور ا   من خلالهم، ونخرج شرك الظلمات من حياتنا، مستدلين على ذلك بقوله(عليه السلام): "بنا

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٥٤.

٢ ـ ورد مصدر هذا الحديث فيما سبق، فراجع.

اهتديتم في الظلماء"، وهو إذ يقول هذا دائماً لا ينفصل فيه عن كتاب ا ورسوله، وقد أوضح معنى النور في عدة أماكن، وهو الذي سطع بمحمد(صلى ا عليه وآله)وأضاء به(١)، وهو الذي "أجلي به غربيب العمى"، وفي توطيد انبثاقه عن الحقيقة المحمدية، يقول(عليه السلام): "بنا يستعطى الهدى، ويستجلى العمى"(٢).

هكذا يمهد الإمام علي(عليه السلام) لنا طرقات معرفته، ويدلّنا به وبالقرآن والنبي وآل البيت على ملاذ قلوبنا، على من تسلّم له زمام الأفئدة، وتروى من عطشها به الظمآء ويربطنا بوصيته(عليه السلام) هنا في قوله:

"أما وصيتي: فا لا تشركوا به شيئاً، ومحمداً فلا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين"(٣).

الكلمة التي تنتهي بأوقدوا هذين المصباحين تلفت الانتباه إلى أمر فيه الأهمية، معناه: ان اتباع الهدى والانكشاف على نور ا ومعرفة الرسول والإمام هي تحت تصرف المرء، أي ليس بعاجز عن فتح أبواب ا تعالى على قلبه، كما أنه ضمن امكاناته أيضاً اغلاقه، ودعونا ننجز هذا المبحث باقتطاع هذه الكلمات من احدى خطبه(عليه السلام) في أهل بيت النبوة(عليهم السلام)، يقول:

---

١ ـ راجع الخطبة الثانية من النهج، بعد انصرافه(عليه السلام) من صفين.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٤٤.

٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٤٩.

"لا يقاس بآل محمد(صلى ا عليه وآله) من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساس الدين، وعماد اليقين إليهم يفيئ الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة"(١).

وإذا أردنا أن نبصر بعد ذلك طريقاً نلتمس به رياض الإسلام وأنوار الكتاب والنبي، فإن علي وآل البيت هم كما قال(صلى ا عليه وآله) الأبواب، وعلينا أن نعرف شيئاً ونلقي سمع الأذن والفؤاد إلى قوله: "أريدكم وتريدوني لأنفسكم"، وإذا انتبه قارئ إلى هذه الجملة الآتية من كلامه، وارتعد فؤاده لقراءتها، عرف طريقاً يسلكه إلى علي بن أبي طالب(عليه السلام) خارج متاهات الاستدلال على الإمام، وفق طرق تغييبه التي اتبعت عند عامة من بحث عنه على شروط توضع من أجل أن يتبوأ منصبه، فلا شرط إذن سوى حكمة ا تعالى في اصطناع أنبيائه لنفسه وبعثهم في الناس، واطلاق الهداة الذين اختصهم فكانوا ممن يلحق بهم التالي، ولا يقاس بهم أحد.

وفي كلمة نختم بها هذا المبحث هنا، هي مثار تأمل لذي لب، يقول(عليه السلام) لشخص امتحنه في أن جعله من عماله، وتعبر هذه المقولة عن ذروة معرفته بنفسه والحق الذي هو عليه بتمامه وكماله: "لأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلاّ دخل النار"(٢).

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢.

٢ ـ نهج البلاغة: كتاب ٤١.

ههنا يستقيم لباحث عن إمامه في أعماقه تمام القرار، ويرفد قلبه بسكينة الاستقرار فالذي يعلم أن سيفه يفصل بين النار والجنة، هو الذي أجاب من سأله: هل رأيت ربك؟ فأجابه: "أفأعبد ما لا أرى"(١). وإذا تابع المتأمل الكيفية التي رأى الإمام فيه ربه، فإنه سيقف على النور الذي لا تنطفىء له شعلة، والحق الذي لا يأتيه الباطل.

الطريق إلى علي(عليه السلام) هو الطريق إلى ا عزوجلّ

إذا كان فناء علي(عليه السلام) بحب محمد(صلى ا عليه وآله) بلغ منه كل هذا المبلغ، وراح يذرف(عليه السلام) نفسه صغيراً ويحامي عنه(صلى ا عليه وآله) يافعاً، ويقاسمه شؤون الدين، ويذب عن حياضه في كل قائمة وقاعدة، ويسوح في كل مصر لنصرته، فكيف برب محمد(صلى ا عليه وآله) ورب جميع الوجود.

من استرشد الطريق إلى علي(عليه السلام)، ودخل مدينة علم رسول ا (صلى ا عليه وآله) من بابها، صار إلى فناء الرحمة المحمدية، حتى يبلغ مرتبة من كشف عنه الحجاب، لكن هذا لا يكون إلاّ ببصيرة راضها حب ا .

ربما كانت هذه الكلمات هنا أقرب إلى التذلل منها إلى روح البحث، ولو أن البحث في مقدس هو في هذا المقام، لا يجد له مناصاً

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٩.

من بلوغ عتبة التواضع التي هي شرفة كسب المعرفة.

كتب على مر التاريخ المئات من العلماء والفلاسفة حول بداية الوجود وأصله، وذهبت الأمم في هذا مذاهب شتى، منها من قارب الحقيقة، ومنها من زاغ بصره، ومنها من وقف في المنطقة الوسطى.

وثمة من لم ير مبرراً للتحرك نحو أشياء لا تدرك، لكن العمق النفسي الإنساني هو في تعريفات الكتاب هنا يساوي "الفطرة"، فالفطرة التي يتحرك فيها شعور البحث عن القوة التي تدير شؤون الحياة، ما زالت مستمرة بالدفع الذي هو من خاصيات الحركة، فهي ليست ساكنة في طبيعتها، ولم تستكن إلى اليوم.

وفي تناول هذه الظاهرة، يمكننا النظر إلى مجمل ما قاله الإمام علي(عليه السلام) في نهج البلاغة وسواه من الكتب التي نقلت ارشاداته للناس، والتي تدخل في معظم نواحيها في عوالم فلسفة المعرفة، فيضع على الأساس للبحث ضمن منطقة القدرة البشرية، ويحزم حقائب الذين يتناولون أو يحاولون تناول ذات ا بالدرس والتأمل، ويشرع لهم طريق الارتحال.

وقد لا نجد بداً هنا من ايراد بعض اضاءاته حول الكيفية التي ينبغي معها للمهتم أن يتعرف على ربه، وهذه المدرسة بالذات هي مدرسة رسول ا (صلى ا عليه وآله)، وقد شقّ علي بن أبي طالب(عليه السلام) بامداده الناس بمثل هذه المعارف الطريق الذي رسمت فيما بعده المدارس

الكلامية مناهجها، وإن لم تكن في المجمل قد بلغت رغبته في تناقل العلم بين الناس، لكنها أثرت في تراث الإنسانية مخزوناً عظيماً من الكتب والبحوث العقائدية والفلسفية.

وفي عروج موجز على الكيفية التي رسم من خلالها للناس طريق التعرف على ا تعالى، نجده يوزع على القلوب مراتب تتدرج معها نحو معرفته، يمكن أن نلاحظ أن يفتح باباً للدخول في هذا العالم من جهة الخضوع   تعالى والاستكانة إلى قراره، ومن جهة أخرى يوسع على المدارك كيفية معرفته، ويحذر في مواطن عديدة من مغبة الخوض في غمرات الجهل، باعمال العقل في سبيل ادراك كنهه، يقول: "فتبارك ا الذي لا تبلغه بعد الهمم، ولا يناله حدس الفطن، الأول الذي لا غاية له فينتهي، ولا آخر له فينقضي"(١).

وفي سبيل اعطاء منتهى الغاية من وراء البحث في معرفة ذات ا تعالى يوقف الإمام القدرة على هذا، ويرجعها إلى أن الذي أمر ا تعالى الناس به هو الذي يكفيهم مؤونة التفكّر والعمل، يقول لنا: "فانظر أيها السائل: فما دلك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضيئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنّة النبي(صلى ا عليه وآله)، وأئمة الهدى أثره، فَكلْ علمه إلى ا سبحانه، فإن ذلك منتهى حق ا عليك"(٢).

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٩٣.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٩٠.

لكن ماذا يفعل من لا يرد على القول، ولا يهديه الهادي إلى سواء سبيله، وقد تقحم غمرات الوهم، أفراد أن يعلم ما هو ا ، يجيب(عليه السلام)هنا على هؤلاء في قوله:

"واعلم أن الراسخين في العلم، هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، والإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح ا اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر على ذلك، ولا تُقدر عظمة ا سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين"(١).

وهو في جميع تناوله لمثل هذه المسألة، لا يعدو تنبيه الناس عدم الدخول في ضلالات الأوهام، ومن أراد أن يضع يده على هذه الحقيقة فليراجع نهجه، وليتزود من جماع كلماته.

وفي ادارته دفة صراع النفس مع رغبة المعرفة، يوشك الإمام علي(عليه السلام) تصنيف الأنفس مثلما فعل هنا، عندما قال من هم الراسخون، ويطلب إلى الناس أن يتفكّروا قبل ذلك بعظيم خلقه، من أدق المخلوقات حتى أبراج السماوات.

ولهذا النهج غاية، هي التماس قانون ا ورسوله، وايضاحه في الناس، وهو عند قوله(عليه السلام) "أمرنا صعب مستصعب" يكفي الإنسان بعد

---

١ ـ المصدر نفسه.

ذلك تعب السير وراء ما لا يدرك، فالذين لا يعرفون محمد وآل بيته على حقيقتهم كيف لهم أن يتجاوزونهم إلى بارئهم، ضعف إذن جهدهم، وكلّت هممهم دون بلوغ ذلك.

وعلى الإجمال يلاحظ في خط الإمام(عليه السلام) أنه يشدد على تناول طرقات ا عبر الطاعات، ولا يقترف المرء من جريرة أعظم من تنازله عن فرائضه، والتزامه مناهج نبيه.

وكما أن الإمام علي(عليه السلام) غايته ا سبحانه، فإن إجابته عن الرؤيا كانت كالتالي: "لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان"(١).

فالغاية من جميع الأمر إذن هو القلب، ومثلما ابتدأت الدائرة الرسالية برمتها منذ آدم إلى يوم المهدي (عج) بالعمل على تطهير القلب، كذلك تختتم به، والذي بلغ النور قلبه انكشفت حقيقة الإمام علي(عليه السلام) عنده، وتقرب إلى ا تعالى باقترابه منه، وابتعد عن ا تعالى بابتعاده عنه.

وقد يعلم من انكشفت له حقيقة إمامه أنه قال: "لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة، ولا تفرقهم عني وحشة"(٢)، فهو البالغ مبلغ اليقين من ربه، والسلامة من أداء أمانته، ويذهب مطمئناً إلى باريه.

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٩.

٢ ـ نهج البلاغة: كتاب ٣٦.

ونختم هذا بوصيته(عليه السلام) التي منها: "واعلم ـ يا بني ـ أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة، وأنّك في منزل قُلعة، ودار بلغة، وطريق إلى الآخرة... وإياك أن تغتر بماترى من أخلاد أهل الدنيا إليها، وتكالبهم عليها، فقد نبأك ا عنها... فإنّما أهلها كلاب عاوية، وسباع ضارية، يهر بعضها بعضاً، يأكل عزيزها ذليلها... سلكت بهم الدنيا طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى"(١).

* * *

بهذا نختم هذا الفصل، مع سعة الطلب والرغبة في الزيادة، إنما أردنا أن نشير إلى تحقق الإمامة في علي(عليه السلام)، وفق المنهج الذي اتبعناه وأجرينا عليه بحوثنا.

---

١ ـ نهج البلاغة: كتاب ٣١.

[هل أنجز الاسلام كلماته]

الحق أن الذي نحن بحاجته هنا، هو الجواب عن سؤال كان قد طرح قبلا، وهو حول القول: في هل أنجز الإسلام كلماته؟

ونفرد هنا هذا المبحث الأخير للاجابة على هذا السؤال، منتبهين إلى مفهوم الإمامة وما يجري عليه من متابعة في بقية أئمة أهل البيت(عليهم السلام).

الكلمة المنجزة

في الإجابة على هذا التساؤل، نعتقد أن الإسلام بما هو دين إلهي يمتلك القدرة على مرافقة مسيرة البشرية إلى غاياتها القصوى، ومن المسائل الرئيسية في الفكر الديني الإسلامي أنه لابد من انجاز مشروعه الإنساني على كامل جغرافيا العالم، وهذا ليس من طموح البشر، بل هو الوعد الإلهي الذي أخذه على نفسه.

فلما كان النبي محمد(صلى ا عليه وآله) قد وضع بمعونة ا سبحانه ووحيه، الأسس والأنظمة التي تضبط هذه المسيرة، وترتفع بالإنسان نحو

غايته وحقيقته، وتسعى به نحو ارضاء ا سبحانه، مثلما تعمل على توثيق عرى الإنسانية، بهدف رفع الظلم وإقامة العدالة، وشرع بإنشاء دولته وإعلاء كلمة ا ، فإنه قد أنجز القسم الأعظم من تطبيق شرائع ا تعالى على الأرض، كما رسم البرامج ووضع الحيثيات التي تؤاتي استمرار هذه القاعدة، كما تؤاتي عدم الخرق بها.

ومن المعروف أن البشر مع ابتعاد الفاصل الزمني بينهم وبين الرسل والأنبياء، يقومون عن قصد أو غير قصد بتبديل أو تحرير أو تغيير سنتهم وتعليماتهم، وهذا حاصل في الديانات التي سبقت الإسلام.

وبما أن النبي محمد(صلى ا عليه وآله) هو الرسول الخاتم الذي لن يبعث ا من بعده أحد، فقد اقتضت الضرورة الحياتية أن يقوم في الأرض من يحفظ هذا الدين من مثل هذه التغييرات، ولا يقوم هذا الأمر مثلما تبين بشكل عفوي، إنما في الوضع الطبيعي يجب أن يكون الأشخاص الذين يقيمونه بمثابة "صنو لرسول ا "، وهذه ليست نظرية تحتمل الخطأ والصواب، بل هذا هو أصل الإسلام، ولدى النظر في السنة النبوية الشريفة، ينكشف لنا أن رسول ا (صلى ا عليه وآله) وضع في ضمن ما وضع من أنظمة وقوانين قاعدة هذا الاستمرار، وقام بتأدية رسالته تامة، وترك للأئمة الذين أخبر الناس بظهورهم وقيامهم بالأمرمن بعده،وسماهم وعددهم،وعليناأن لانستسلم

لدعاوي عدم الصحة، أو الخروقات التي تمت وراء هذه السنة في التاريخ.

ويكفينا هنا ايراد نموذج من أحاديثه(صلى ا عليه وآله) في هذا الخصوص كاظهار لهذه الحقيقة، ولا نهدف هنا إلى مناقشتها، لأن هذا ليس من أهداف الكتاب، يقول(عليه السلام): "لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش"(١).

ونحن نعتقد بتمام صواب هذا الأمر، لا لأنّها وردت في حديث النبي(صلى ا عليه وآله)وحسب، إنّما لعلّة انتهاء الرسالات السماوية من جهة، وضبط استمرار الإسلام من جهة ثانية.

ولما تبين لنا ماهية الإمامة، لم يعد هنالك من حاجة إلى متابعة تفصيلاتها، لكن الذي يقال هنا هو أن الأئمة الذين يسترسلون في القيام بهذا الأمر بين الناس بعددهم الذي أقره نبي ا ، من أجل بلوغ الإسلام هذه الذروة التي رسمها ا سبحانه له، لا من أجل ارضاء هذه الفئة من الناس أو تلك، وأن هذا الإمام هو الذي يمثّل (المثال)، الذي اتّضحت لنا ماهيته بالشكل الذي أمكن أن نفهمه، وهو بهذا اللحاظ الذي يقيم أمر ا نهائياً، أي أن الإسلام ينجز مشروعه كاملا

---

١ ـ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش: ١١٥٥/٣، مسند أحمد: ٩٠/٥، ٩٨، وعند البخاري قريب منه، باب الاستخلاف، ولهذه الرواية أشكال عدة، لكن الهدف هنا هو استمرار قيام من يمثل الرسول(صلى ا عليه وآله) ليس غيره.

بتمام ظهور الإمام الثاني عشر، بحسب قول رسول ا (صلى ا عليه وآله) وبحسب قوله سبحانه (كتب ا لأغلبن أنا ورسلي)(١).

نصل إلى ختام هذا الأمر هنا بأن الكلمة النهائية في الإسلام، تطبيقاً وانجازاً لرسالة نبيه مرهون به.

منفعة على سبيل الخاتمة

قال رسول ا (صلى ا عليه وآله) يوم برز الإمام(عليه السلام) في غزوة الخندق: "برز الإسلام كلّه إلى الشرك كله"(٢).

فقد كان الإمام علي(عليه السلام) يمثّل إسلاماً يتحرك بين الناس، وحين رفع القوم المصاحف في صفين قال الإمام(عليه السلام): "أنا كتاب ا الناطق"(١)، والإمام ولد في الكعبة، وأبونا إبراهيم بعد أن بنى الكعبة دعا ربه أن تكون الإمامة في ذريته، الأمور مقدرة من ا تعالى وليست مصادفة.

وقد أمر ا تعالى أن يتجهوا إلى الكعبة ويصلوا، وحين يقول المصلّي ا أكبر ويتوجه إلى الكعبة يتذكر أن إمامه ولد فيها، وأن الصلاة بلا إمام لا تساوي شيئاً، "ومن مات ولم يعرف إمام زمانه

---

١ ـ المجادلة: ٢١.

٢ ـ أنظر اقبال الأعمال لابن طاووس: ٢٦٧/٢.

٣ ـ أنظر وسائل الشيعة: ٣٤/٢٧ (٣٣١٤٧).

مات ميتة جاهلية".

كما أن الإمام علي(عليه السلام) حين تلقى ضربة ابن ملجم قال: "فزت ورب الكعبة"(١) أي أنه استعمل هذا التعبير (ورب الكعبة) دون غيره!..

وحين آخى الرسول(صلى ا عليه وآله) بين المهاجرين والأنصار... كان من المتوقع أن يؤاخي أحد كبار الأنصار أو زعيمهم الذي كان سيتوج ملكاً قبيل وصوله(عليه السلام)، أو في أحد الاحتمالات أن يؤاخي أكبر الأنصار سناً لكنه آخى الإمام علي(عليه السلام) تاركاً كل هذه التوقعات، ورغم أن ذلك فيه إحراج شخصي له أمام المنافقين والمشركين ومن لم يدخل الإيمان في قلوبهم تماماً لكنه(صلى ا عليه وآله) (ما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى)(٢).

كل هذه الأمور وغيرها كثير خصوصيات لا يشترك فيها مع علي(عليه السلام) إنسان آخر، كائناً ما كان، فلندرس نظرة هذه الشخصية الفريدة الخالدة إلى بعض أمور الحياة، ولنأخذ موضوع العلم والتعلم وموضوع الحكم وهما موضوعان متداخلان.

إن المعلم الحق، المعلم بالمطلق هو ا جلّ وعلا الذي (علم آدم الأسماء كلّها)(٣)، وا تعالى خلق الإنسان وعلمه البيان، كما أنه

---

١ ـ أنظر مناقب آل أبي طالب: ٣٨٥/١.

٢ ـ النجم: ٣، ٤.

٣ ـ البقرة: ٣١.

علم بالقلم الذي كان ولا يزال الوسيلة الأولى في التعلم والتدوين، كما أنّه عزوجلّ قد أقسم بالقلم وما يسطرون، أي بكل وسائل الكتابة سواء بالقلم أو بغيره، كالحاسوب حالياً وربما وسائل أخرى في المستقبل، وكل خلق ا تعالى قد تعلم منه كما ويتعلم الخلق بعضهم من بعض، فالنبي موسى(عليه السلام)، تعلم من العبد الصالح الذي آتاه ا من لدنه علماً، ثم أصبح الأنبياء معلمين لغيرهم، وعلى الناس أن يتعلموا منهم (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(١).

وكذلك على الناس أن يتبعوا من يهديهم إلى الحق ويتعلموا منهم (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلاّ أن يهدى فما لكم كيف تحكمون)(٢)، وقد مر معنا تفصيل ذلك، وقد أولى الإمام علي(عليه السلام) مسألة العلم والتعلم أهمية كبيرة فسخر لها قسماً من علمه وأحاديثه.

يقول الإمام علي(عليه السلام): "أشرف الأشياء العلم، وا تعالى عالم يحب كل عالم"(٣)، ويقول أيضاً: "ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، لكن الخير أن يكثر علمك"(٤)، ويقول: "العالم حي وإن كان ميتاً، والجاهل

---

١ ـ الحشر: ٧.

٢ ـ يونس: ٣٥.

٣ ـ أنظر: شرح نهج البلاغة، الحكم المنسوبة إليه: ٢٨٨/٢٠ (٢٩٨).

٤ ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ٨٩.

ميت وإن كان حياً"(١)، ويقول: "كل وعاء يضيق بما يجعل فيه إلاّ وعاء العلم، فإنّه يتسع"(٢).

ثم انظر أخي القارئ الكريم في هذا القول الشهير الذي قاله علي(عليه السلام) وذهب مثلا إلى أن يرث ا   الأرض ومن عليها: "قيمة كلّ امرئ ما يحسنه"(٣)، أليس فيه أقصى تشجيع للتعلم؟ كما أنه وقبل كل الناس شجع على أن نختار من العلم أحسنه وأنفعه، حين قال: "العلم أكثر من أن يحاط به (يحصى) فخذوا من كل شيء أحسنه"(٤)كما أن الإمام(عليه السلام) كان أول من أشار إلى جدلية العلم والتعلّم بقوله: "ما أخذ ا   على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا"(٥)، وبقوله: "إن الجاهل المتعلم شبيه بالعالم"(٦).

ولا غرو في ذلك فالعلم والتعلم يحتاجان إلى متلق يحمل شخصية مقابلة للأخذ ومن ثم للعطاء... الماء هو نفسه الذي ينزل من السماء، لكن المتلقي أي الأرض تختلف بين مكان وآخر، كما أن الماء الزلال نفسه يتحول في بطون الأفاعي إلى سم زعاف، وكذلك

---

١ ـ غرر الحكم: ١٤٨١ (١١٢٤، ١١٢٥).

٢ ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ١٩٥.

٣ ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ٧٦.

٤ ـ غرر الحكم: ١٨١٩.

٥ ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ٤٦٨.

٦ ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ٣١١.

شخصية كل من المتعلم والعالم تختلف من فرد إلى آخر، لذلك فإن الإمام علي(عليه السلام) يركز أساساً على تربية الإنسان ويسعى أن يرشده سواء السبيل.

فإذا صعد علي(عليه السلام) المنبر تمنى أن يسمع منه الناس جميعاً، وأن يأخذوا منه ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، أو بتعبيره(عليه السلام): أتمنى أن يعشوا إلى ضوئي، فهو كالشمس تعطي دفئها ونورها للجميع دون تمييز، ومع ذلك فإن الإمام يركز في الوقت نفسه على عدد من الناس ليطور وعيهم ويزكي ايمانهم ليجعل منهم نموذجاً متميزاً وقدرة حسنة.

ويركز الإمام أيضاً على الفروق الفردية لشخصيات الناس، فيقول: "إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها"(١)، ثم يتناول في قضية العلم والتعلم موضوع المسؤولية فيقول في نصب نفسه للناس إماماً: "من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم"(٢).

وهذا تأكيد على ضرورة التعلم والفهم والاستيعاب وضرورة تعميق فهم أية مسألة من المسائل، وإن مسألة الدراية تعني أن الناس

١ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ١٣٩.

٢ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ٦٨.

بحاجة إلى معلمين يوضحون لهم المسائل وإلى مرشدين يهدونهم سواء السبيل، والمرشد كما مر يلزم أن يكون مستقيماً يهدي غيره ولا يحتاج لمن يهديه، ولا يحتاج إلاّ إلى ا الذي يستمد منه النور والهدى، وحيث أن الرجوع إلى معلم في كل علم أمر مسلم عند كل عاقل، وسينتهي الحال إلى معلم يستلهم من ا تعالى ويعطي الآخرين، وهنا نصل إلى النبي أو إلى الإمام.

موضوع الحكم

إن قضية الرئاسة والحكومة دليلها العقلي قوي وتدعمها التجربة البشرية، إذ ثبت بالاستقراء أن المجتمعات انتهت دائماً إلى رئيس، ونحن نقول: إن الجدير بالرئاسة والإمامة والقيادة هو النبي أو الإمام، لأنّه أكمل الأفراد، لأنّه اختيار ا تعالى، وقد اهتم الإمام علي(عليه السلام)بهذا الموضوع اهتماماً بالغاً وقد اقتبسنا من كلامه في هذا المجال ما يلي:

"شر الناس عند ا إمام جائر ضل وضل به"(١) و"عدل السلطان خير من خصب الزمان"(٢)و"البغي آخر مدة الملوك"(٣)و"يد ا فوق

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٦٤.

٢ ـ مطالب السؤول: ٥٦، نظم درر السمطين: ١٦٠.

٣ ـ شرح نهج البلاغة: الحكم المنسوبة إليه: ٣٣٤/٢٠ (٨٣١).

رأس الحاكم ترفرف بالرحمة فإذا حاف [أي ظلم] وكّله ا إلى نفسه"(١) و"إذا كان الراعي ذئباً فالشاة من يحفظها"(٢).

هذه الأقوال وغيرها يركز(عليه السلام) فيها على ضرورة أن يكون الإمام عادلا وأن لا يكون ظالماً.

أما عن بطانة الحاكم، وأن عليه أن يختار هيئة استشارية صالحة وبطانة ناصحة قد قال الإمام علي(عليه السلام) قولا لا أبلغ ولا أروع منه: "من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء، فإنه لو غص بغيره لأساغ الماء غصته"(٣).

أما عن خطورة منصب الحاكم، وأنّه مما لا يحسد عليه لعظم المسؤولية، فقد قال الإمام علي(عليه السلام): "صاحب السلطان كراكب الأسد: يغبط بموقعه، وهو أعلم بموضعه"(٤).

والحكومة كلمة مشتقة من الحكمة، الحكمة معناها العقل المليء بالعلم والعمل، فالإنسان الذي يتمتع بعقل سليم راجح وعلم وافر ولا يعمل بهما فلا يقال له حكيم، فالحاكم عليه أن يكون عالماً وأن يعمل بما علمه ا تعالى، وأن الأقوال التي ذكرناها عن الإمام علي(عليه السلام) في شروط الحاكم الصالح، تعني من جملة ما تعنيه أنه لا

---

١ ـ الكافي للكليني: ٤١٠/٧.

٢ ـ شرح نهج البلاغة، الحكم المنسوبة إليه: ٣٠٠/٢٠ (٤١٨).

٣ ـ المصدر نفسه: ٣٠٨/٢٠ (٥٢٦).

٤ ـ نهج البلاغة: قصار الحكم ٢٥٤.

يصلح لها إلاّ إمام عادل، وذلك حتى يدوم الحكم وتتعزز هيبته ويقيم العدل بين الناس.

يقول الإمام علي(عليه السلام): "إن ا فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس"(١) ويقول أيضاً: "أما بعد، فقد جعل ا سبحانه لي عليكم حقّاً بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف... وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية، وحق الرعية على الوالي... فليست تصلح الرعية إلاّ بصلاح الولاة، ولا يصلح الولاة إلاّ بإستقامة الرعية.

فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء.

وإذا غلبت الرعية واليها، أو أجحف الوالي برعيته، اختلفت هناك الكلمة، وظهرت معالم الجور... فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطّل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالك تذلّ الأبرار، وتعز الأشرار"(٢).

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ٢٠٩.

٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.

نعود الآن إلى موضوع العلم واختيار الإمام علي(عليه السلام) لفئة من الناس وتركيزه عليها ليجعل منها قدوة صالحة، لأن يكون منها الولاة والعمال الذين يختارهم الإمام ليسلمهم مهام قيادية.

يقول(عليه السلام): "إنّما قلب الحدث كالأرض الخالية"(١)، يعني أن ا أودع في الإنسان كل أساليب التربية، وكل ما في الأمر أنه يحتاج إلى المطر وإلى اختيار نوع المزروعات، فالطفل تربة خصبة صالحة للزراعة، وما عليك إلاّ أن تتعهده بالعناية وتختار له المعلومات الحسنة الصالحة، ويقول في وصيته لابنه الحسن(عليه السلام): "ابتدأتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك"(٢)، يعني وأنت شاب طري العود، قادراً على تفهم الأمور والفصل فيها قبل أن تستفحل إلى شر، فالشر كالشجرة الصغيرة، تستطيع قلعها بسهولة وهي صغيرة طرية الأغصان وقبل أن تمد جذورها عميقاً.

نحن في مدرسة الإمام علي(عليه السلام) يجب أن نتفاعل مع فكره، ونغرف من نبعه، ونروي ظمأنا من معينه، ولم أتوسع في هذا الكتاب بذكر فضائل الإمام علي(عليه السلام)فهي أكثر من أن تحصى، ولكني ركّزت على قضية الإمامة وآمل أن أكون قد وفيت الموضوع حقه أو بعض حقه، وهل يمكن فهم قضية الإمامة دون العودة إلى أبي الأئمة؟

---

١ ـ نهج البلاغة: كتاب ٣١.

٢ ـ المصدر نفسه.

المصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ أسرار الآيات، الشيرازي، صدر الدين، دار الصفوة، بيروت ١٩٩٣.

٣ ـ الأصول من الكافي، الكليني، محمد بن يعقوب، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٥.

٤ ـ الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، الخالدي، محمود، دار الفكر، عمان.

٥ ـ الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي.

٦ ـ البحث النفسي والدين، المطهري، مرتضى، منظمة الإعلام الإسلامي.

٧ ـ بحث حول الولاية، الصدر، محمد باقر، دار التعارف، بيروت ١٩٧٩.

٨ ـ تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي، مؤسسة أهل البيت، بيروت ١٩٨١.

٩ ـ روح المعاني في تفسير القرآن، الآلوسي، محمود شكري، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥.

١٠ ـ ربيع الأبرار، الزمخشري.

١١ ـ السيرة النبوية، ابن برهان الحلبي، ج١.

١٢ ـ سنن الترمذي.

١٣ ـ سوريال، ميسر اورخان، ضمن نظرية الشعر، الخطيب محمد كامل، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٧.

١٤ ـ سر الصلاة أو صلاة العارفين، الخميني، روح ا ، ت: أحمد الفهري، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٥ ـ صحيح البخاري.

١٦ ـ صحيح مسلم.

١٧ ـ طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى.

١٨ ـ العلم من منظوره الجديد، اغروس، روبرت، ستانسيو، جورج. ت: كمال خلايلي، سلسلة عالم المعرفة عدد ١٣٤.

١٩ ـ علي والفلسفة الإلهية، الطباطبائي، محمد حسين، الدار الإسلامية ١٩٩٢.

٢٠ ـ الفصل في الملل والنحل، ابن حزم، مكتبة المثنى، بغداد.

٢١ ـ قصة الحضارة، ديورانت، ويل، الجامعة العربية ١٩٤٩.

٢٢ ـ كتاب الحياة، الحكيمي، محمد رضا ومحمد علي، مكتب

نشر الثقافة، ط١، ١٤٠٠هـ.

٢٣ ـ اللآلي من النصوص الكنعانية، ميديكو، بيروت ١٩٨٠.

٢٤ ـ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت ١٩٧٧.

٢٥ ـ لن يخلو الأبيض إلى نفسه، الحديدي، صبحي، الكرمل، عدد ٤٥، ١٩٩٢.

٢٦ ـ محيط المحيط، البستاني، بطرس، دار لبنان، ١٩٧٧.

٢٧ ـ المعجم الفلسفي المختصر، سلوم، توفيق، طبعة موسكو.

٢٨ ـ من ألواح سومر إلى التوراة، عبدالواحد، فاضل، دار شؤون الثقافة، بغداد ١٩٨٩.

٢٩ ـ معرفة القرآن، المطهري، مرتضى، ت: جعفر الحلي، طهران ١٤٠٢هـ.

٣٠ ـ المفردات لألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، ايران، ١٣٦٣هـ.

٣١ ـ معجم علم الاجتماع، ميتشل، دينكن، ت: احسان الحسن، دار الطليعة بيروت ١٩٨٦.

٣٢ ـ مقالات منتخبة، اليوت، ت. س، لندن، الطبعة الانجليزية.

٣٣ ـ المفصل من تاريخ العرب قبل الإسلام، علي، جواد، بيروت، دار العلم ١٩٦٩.

٣٤ ـ مسند أحمد بن حنبل.

٣٥ ـ مناقب أحمد بن حنبل، ابن الجوزي.

٣٦ ـ المراجعات، شرف الدين، عبدالحسين.

٣٧ ـ نهج البلاغة، طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٩٣.

٣٨ ـ نقد العقل العملي، كانت، عمانئيل، ت: أحمد شيباني، دار اليقظة العربية، بيروت ١٩٦٦.